



This is a digital copy of a book that was preserved for generations on library shelves before it was carefully scanned by Google as part of a project to make the world's books discoverable online.

It has survived long enough for the copyright to expire and the book to enter the public domain. A public domain book is one that was never subject to copyright or whose legal copyright term has expired. Whether a book is in the public domain may vary country to country. Public domain books are our gateways to the past, representing a wealth of history, culture and knowledge that's often difficult to discover.

Marks, notations and other marginalia present in the original volume will appear in this file - a reminder of this book's long journey from the publisher to a library and finally to you.

Usage guidelines

Google is proud to partner with libraries to digitize public domain materials and make them widely accessible. Public domain books belong to the public and we are merely their custodians. Nevertheless, this work is expensive, so in order to keep providing this resource, we have taken steps to prevent abuse by commercial parties, including placing technical restrictions on automated querying.

We also ask that you:

- + *Make non-commercial use of the files* We designed Google Book Search for use by individuals, and we request that you use these files for personal, non-commercial purposes.
- + *Refrain from automated querying* Do not send automated queries of any sort to Google's system: If you are conducting research on machine translation, optical character recognition or other areas where access to a large amount of text is helpful, please contact us. We encourage the use of public domain materials for these purposes and may be able to help.
- + *Maintain attribution* The Google "watermark" you see on each file is essential for informing people about this project and helping them find additional materials through Google Book Search. Please do not remove it.
- + *Keep it legal* Whatever your use, remember that you are responsible for ensuring that what you are doing is legal. Do not assume that just because we believe a book is in the public domain for users in the United States, that the work is also in the public domain for users in other countries. Whether a book is still in copyright varies from country to country, and we can't offer guidance on whether any specific use of any specific book is allowed. Please do not assume that a book's appearance in Google Book Search means it can be used in any manner anywhere in the world. Copyright infringement liability can be quite severe.

About Google Book Search

Google's mission is to organize the world's information and to make it universally accessible and useful. Google Book Search helps readers discover the world's books while helping authors and publishers reach new audiences. You can search through the full text of this book on the web at <http://books.google.com/>

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0315317552

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL LIBRARY

هذه قصة التاجر على نور الدين المصري
وما جرى له مع جاريته مريم
الزنازية بنت ملك أفرنجيه
وما فيها من الجرائب
على التمام

﴿طبع﴾

﴿بالمطبعة الماسرة الشرفيه﴾

﴿سنة ١٣١٤ هجرية﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾

(ومما يحكى) انه كان في قديم الزمان وسالف العصر والاوان رجل تاجر بالديار المصرية
 يسمى تاج الدين وكان من اكابر التجار ومن الامناء الاحرار الا انه كان مولعا بالاسفار الى
 جميع الاقطار ويحب المير في البراري والقفار واليهول والاورار وجزائر البحار في
 طلب الدرهم والدينار وكان له عميد وممالك وخدم وجواري وطامسار كالأخطار
 وقاسى في السيف مرمايشيب الاطفال الصغار وكان أصغر التجار في ذلك الزمان مالا
 وأحسنهم مقالا صاحب خيول وبغال وبخاني وجمال وغرائر وأعدال وبضائع وأموال
 وأقشعة عديدة المثال من شدة وجمجمة وثياب بلبكية ومقاطع سندسية وثياب مروزية
 وتغافل فندية وأزرار بغدادية وبرانس مغربية وممالك تركية وخدم حبشية
 وجواري رومية وعثمان مصرية وكانت غرائر أحماله من الخبز لانه كان كثير الاموال
 يدبغ الجمال مائس الاعطاف شهي الانعطاف كما قال فيه بعض واصفيه

وتاجر حابن عشاقه * والحرب فيما بينهم تأثر

فقال مالتاس في ضجة * قلت على عينك يا تاجر

{ وقال آخر في وصفه وأجاد وأتى فيه بالمراد }

وتاجر في رصده زارنا * والقلب من الحافظ حائر

فقال لي مالك في حيرة * قلت على عينك يا تاجر

وكان لذلك التاجر ولد ذكر يسمى عليا نور الدين كانه البدر اذا ندر في ليلة أربعة عشر
 يدبغ الحسن والجمال ظريفا القدر والاعتدال فحاس ذلك الصبي يوما من الايام في
 فكان والده على رى عادته للبيع والشراء والاخته والعطاء وقد دارت حوله اولاد
 التجار فصار بينهم كانه القمر بين النجوم يجيبهم أزهر وخذأجر وعذارا خضر وجسم
 كانه الممر * كما قال الشاعر

وملج قال صفي * أنت في الرصف رجي قات قولاً باختصار * كل ما فيك ملج
 { وكما قال فيه بعض واصفيه }

له خال على صفحات خد * كمنطة عنه بر في يمن مرمر

والحافظ بأسياف تنادى * على حامي الهوى الله أكبر

ختمه أولاد التجار وقالوا له يا سيدي على نور الدين نشتم في هذا اليوم اننا نتفرج
 نحن وإياك في البستان الفلاني فقل لهم - حتى أشاور والدي فاني لا أقدراً أن أذهب إلا

بأجازته فبينما هم في الكلام وإذا بالولد تاج الدين قد أتى فنظر إليه ولده وقال يا أبا
 ابن أولاد التجار قد عزموني لأجل أن أتفرج معهم في البستان الغلاني فهل تأذن لي في
 ذلك فقال نعم يا ولدي ثم أنه أعطاه شيئا من المال وقال توجه معهم فركب أولاد التجار
 حميرا وبغال الأوركب على نور الدين بغلة وسار معهم إلى بستان فيه ما تشبهه الأنفوس وتلذ
 الأعين وهو مشيد الأركان رفيع البنيان له باب مقنطر كأنه أيوان وباب سماوي يشبه
 أبواب الجنان وبوابه اسمه رضوان وفوقه مائة مكعب عنب من سائر الألوان الأحمر كأنه
 مرجان والاسود كأنه أنوف السودان والابيض كأنه بيض الحمام وفيه الخوخ والرمان
 والكمثرى والبرقوق والتفاح كل هذه الأنواع مختلفة الألوان صنوان وغير صنوان
 كما قال فيه الشاعر عنب طعمه كطعم الشراب * حالك لونه كالون الغراب
 بين أوراقه زهاف تراه * كبنان النساء بين الخضاب
 وكما قال فيه الشاعر أيضا عناقيد حكت لما تلدت * على قضبانها جسمي فحول
 حكت عسلا وماء في أناء * وعادت بعد حصر مهاشعولا
 ثم انتهوا إلى عريشة البستان فرأوا رضوان بواب البستان جالسا في تلك العريشة كأنه
 رضوان خازن الجنان ورأوا مكتوبا على باب العريشة هذه البيتين
 سقى الله بسناتنا نذات قطوفه * ففالت بها الأغصان من شدة الشرب
 إذا رقصت أغصانه بيد الصبا * تنقطها الأنواء بالأسود والربط
 ورأوا مكتوبا في داخل العريشة هذين البيتين
 ادخل بنا يا صاح في روضة * تجلوعن القلب صداهمه
 نسيمها يعثر في ذيله * وزهرها يضل في كفه
 وفي ذلك البستان فواكه ذوات أفنان وأطياف من جميع الأصناف والألوان مثل
 فاخت وبلبل وكروان وقري وحمام ينرد على الأغصان وأنهارها مياه الجارى وقد
 راقت تلك البحارى بازهار وأنهار ذات لذات كما قال فيه الشاعر
 سمرت النسيم على الغصون فشابهت * خوداءه عثر في جبل ثابها
 وحكت جدواها السيوف إذا انتضت * أيدى الفوارس من غلاف قرابها
 وكما قال فيه الشاعر أيضا

والنهر ممد على الغصون ولم يزل * أدا غل شخضها في قلبه
 حتى إذا فطن النسيم سرى لها * من غيرة فاما لها من قربه
 وأشجار ذلك البستان عليها من كل فاكهة زوجان وفيه من الرمان ما يشبه أكر

الغبيران كما قال فيه الشاعر

ورمان رقيب في القشر محكي * نهود البكر اذ برزت غولا

اذا قشرته ييب - دولتنا * من الباقوت ما بهر العقولا

{ وكما قال فيه الشاعر }

ملمة تدرى لاقاصد خوفها * يواقيت حمراني معاطف عبرى

ورمانة شهب منها اذ رايتها * بنم - د العذارى اوبق - فمرمر

وفيها شفاء للربض وصحة * وفيها - ديث لاني المطهر

وفيها يقول الله جل جلاله * مقالا لنا في الكتاب المسطر

وفي ذلك البستان تفاح سكري ومسكى يدعش الناظر كما قال فيه الشاعر

تفاحه جمعت لونين قد حكيما * خدى حبيب ومحبوب قد اجتمعا

لاحا على الغصن كالغصدين من عجب * فذاك اسود والثاني بهلعا

تعاثقا في - دواش قراعهما * فاحمرنا بخلا واصفر ذاولعا

وفي ذلك البستان مشمش لوزي وكافوري وجبلاني وعذاني كما قال فيه الشاعر

والشمش اللوزي يحكي عاشقا * جاء الحبيب له فغريابه

وكفاه من صفة المتيم ما به * بصفر ظاهره ويكسر قلبه

{ وقال فيه آخر واجاد }

انظر الى المشمش في زهره * حدائق مجلوسناها الحدق

كالانجم الزهر اذا ما زهت * فالغصن يزدهر بها في الورق

وفي ذلك البستان برقوق وقراصي وعناب تشفي السقيم من الاوصاب والتين فوق

اغصانه ما بين احمر واخضر يحير العقول والنواظر كما قال فيه الشاعر

كانما التين يبدو منه ابيضه * مع اخضر بين اوراق من الشجر

ابناء روم على اعالى القصور وقد * جن الظلام بهم باقوا على حذر

{ وقال آخر واجاد }

اهل البين جاءنا * منضد على طبق كسفرة مضهومة * قد جعت بلا حلق

{ وقال آخر واجاد }

انعم بئين طاب طعاما كنسى * حسنا وقارب منظران مخبر

بيدى تعاطيه اذا ما ذقته * ريح الافاح وطيب طعام السكر

وحكى اذا ما صب في اطباقه * اكرامه عن من الحرب بالاخضر

{ وما أحسن قول بعضهم }

قالوا وقد ألفت نفسي تفكها * بغير فاكهة في حبها ما موا
لاي شئ تحب التين قلت لهم * للتين قوم وللجوز أقوام

{ وأحسن منه قول الآخر }

التين يعجنى عن كل فاكهة * لما استوى والتوى في غصنه الزاهي
كأنه عابد والسحب ماطرة * فاضت مدامعه من خشية الله
وفي ذلك البستان من الكثرى الطورى والحاي والرومي ما هو مختلف الألوان صنوان
وغير صنوان ما بين أصفر وأخضر يدعش الناظر كما قال فيه الشاعر
تهنئك كثرى غدا لونها * لون محب زائد الصفره
شبيهة بالبكر في خدرها * والوجه منها مسبل الستره
وفي ذلك البستان من الخوخ الساطاني ما هو مختلف الألوان من أصفر وأحمر كما قال فيه
الشاعر
كأنما الخوخ في روضة * وقد بداخذه العنبدى
بنادق من ذهب أصفر * قد خضبت وجهها بالدم
وفي ذلك البستان من اللوز الأخضر ما هو شديد الحلاوة يشبه الجوارولبه من داخل
ثلاثة أثواب صنعة الملك الوهاب كما قيل فيه

ثلاثة أثواب على جسـدر طـب * مخالفة الأشكال من صنعة الرب
تربه الردى في ليله ونهاره * وان يكن المسجون فيها بلا ذنب
وقال آخر وأجاد
أما ترى اللوز حين تظهره * من الأفانين كف مقتطف
وقشره قد جلا القلوب لنا * كأنه الدر داخل الصدف

{ وأحسن منه قول الآخر }

يا حسن لوز أخضر * أصغره ملء اليد * كأنما زهره
نبت عذار الارمد * وقد غدت قلوبه * مزدوجا مع مفرد
كانها الأرائى * تصان في زبرجد

{ وقال آخر وأجاد }

ما أبصرت عنماي مثل اللوز ذا * في حسـنه لما بدت أنواره
الرأس منه باسـمعال شائب * حين انتشا وأخضر منه عذاره
وفي ذلك البستان التبق مختلف الألوان صنوان وغير صنوان كما قال فيه بعض
أصفه هذا الشعر

انظر الى النبق في الاغصان منتظما * كشمس مهب يزهو على القصب
كان صفرة للناترين غدت * تحكي جلاجل قد صيغت من الذهب

(وقال آخر وأجاد)

وسدرة كل يوم * من حسنها في فنون * كأنها النبق فيها * وقد بدد العينون
جلاجل من نضار * قد علفت في غصون

وفي ذلك البستان النارنج كانه خولجان كما قال فيه الشاعر الولهان

وحراء مثل الكف تزهو بحسنها * فظاهرها نار وباطنها النج
ومن عجب تلج مع النار لم يذب * ومن عجب نار ولبس لها وهج
(وقال بعضهم وأجاد)

واشجار نارنج كان ثارها * اذا ما بدت للناتر المتفرس
خددود نساء قد تبرجن زينة * بايام غيد في غلائل سندس

(وقال آخر وأجاد)

كان رب النارنج اذهبت الصبا * واضهت به الاغصان وهي تميد
خددود عليها بمحبة الحسن اقبلت * عليها باوقات السلام حدود
وقال آخر وأجاد وشادن قلت له صف لنا * بسـمتانه اهذا ونارنجنا

فقال لي بستانكم طلعتي * ومن جنى النارنج وردى جنى

وفي ذلك البستان الاترج لونه كلون التبروق قد حط عن أعلى مكان وتدل في الاغصان
فالت به وكأنه سبائك العقبان وقد قال فيه الشاعر

أما ترى أيدكة الاترج مـمرة * يخشى عليها اذا مالت من العطب
كأنها عند ما مر النسيم بها * غصن تحمل قضباناً من الذهب

وفي ذلك البستان الكبداء متدلها في أغصانه كنود أبكار تشبه الغزلان وهو على غاية
المراد كما قال فيه الشاعر وأجاد

وكبداء بين الرياض نظـرتها * على غصن رطب كقمامة أغيد

اذا ميلتها الريح مالت كأكرة * بدت ذهباً في صولجان زبرجد

وفي ذلك البستان الليمون ذكي الرائحة يشبه بيض الدجاج ولكن صفرة زينة تجانبه
وريجحه يزهو لجانبه كما قال فيه بعض واصفيه

أما ترى الليمون لما بدا * يأخذ اشراقه بالعيان

كانه بيض دجاج وقد * أطعمته الخس بالزعفران

وفي ذلك البستان من سائر الفواكه والرياحين والخضراوات والمشهورات من
الباشمين والفاغية والفلفل والسنبلي العنبري والوردية أثر أنواعه ولسان الحمل والاس
وكامل الرياحين من جميع الاجناس وذلك البستان من غير تشبيه كانه قطعة من
الجنان لرائحة اذا دخل العليل خرج منه كالا سدا الغضبان لا يقدر على وصفه اللسان
لما فيه من العجائب والغرائب التي لا توجد الا في الجنان كيف لا واسم بوابه رضوان
لكن بين المقامين شتان (فلما) تفرج أولاد التجار في ذلك البستان جلسوا بعد التفرج
والتنزه على ليوان من لواوينه وأجلسوا نور الدين في وسط الليوان على نطح من الادبي
المزركش متكئا على محدة مخشوفة بريش النعام وظهارت لها مدورة سنجابية ثم تناولوه
مروحة من ريش النعام مكنو باعليها اذان البستان

ومروحة معطرة النسيم * تذكر طيب أوقات النسيم
وتهدى طيبها في كل وقت * الى واحة الفتى الحر الكريم

ثم ان هؤلاء الشباب دخلوا ما كان عليهم من العمام والثياب وجلسوا ويتحدثون
ويتنادمون ويتجادون اطراف الكلام بينهم وكل منهم يتأمل في نور الدين ينظر
الى حسن صورته وبعد ان اطمان بهم الجلوس ساعة من الزمان أقبل عليهم عبدو على
رأسه سفرة طعام فيها أوافى من الصيني والبور لائن بعض أولاد التجار كان أواميه
أهل بيته أقبل الخروج الى البستان وكان على تلك السفرة عماما درج وطاروسج في
البحار كالقط والسमान وافرأخ الحمام وشياه الضان وأطاف السمك فلما وضع تحت تلك
السفرة بينهم تقعدوا وأكلوا بحسب الكفاية ولما فرغوا من الاكل قاموا عن الطعام
وغسلوا أيديهم بالماء الصافي والصابون الممك وبعد ذلك نشفوا أيديهم بالمانديل
المسوجة بالحرير والقصب وقدموا لنور الدين منديلا مطرزا بالذهب الأحمر فمسح به
يديه وجاءت القهوة وشرب كل منهم مطلوبه ثم جلسوا للحديث وأذاخه نولي البستان
ذهب وجاء بشيلة مملوءة بالورد وقال ما تقولون يا ساداتنا في المشهور فقال بعض أولاد
التجار لا بأس به خصوصاً الورد فانه لا يبرد فقال البستاني نعم ولكن عادتنا اننا لا نعطي
الورد الا بالماندمة فن أراد أخذه فليأت بشئ من الشر مناسيب المقام وكان أولاد التجار
عشرة أشخاص فقال واحد منهم نعم أعطني وأنا أنشدك شيا من الشعر مناسيب المقام
فتناولوه خزمة من الورد فاخذوها وأنشد هذه الأبيات

لورد عندى محل * لانه لا عمل * كل الرياحين جند
وهو الامير الاجل * ان غاب عزوا وتاهوا * حتى اذا جاء ذلوا

ثم ناول الثاني حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

دونك يا سمدى وردة * بذكرك المسك أنفاسها

كفادته أنصهرها عاشق * غطت باكامها راسها

ثم ناول الثالث حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

ورد نفيس تسر القلب رؤيته * تحكي رواحه ما طاب من ند

قد ضمه النفس في أوراقه طربا * كقيلة بغم من غـير ماصد

ثم ناول الرابع حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

أما ترى دوحه الورد التي ظهرت * لها بدائع قد دركبن في قضب

كانن يواقيت بطوف بها * زبرجد قد حوى شذرا من الذهب

ثم ناول الخامس حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

قضب الزبرجد قد جان وانما * أثماره من سبائك العقبان

وكان وقع القطر من أوراقه * دمع بكنه فواثر الاجفان

ثم ناول السادس حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

يا وردة لبديع الحسن قد جئت * وأودع الله فيها لطف أسرار

كانها خـمد محبوب ونقطه * لدى التواصل مشتاق بدينار

ثم ناول السابع حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

قلت لا ورد ما لشـوكك يؤذى * كل من مسه سريع الجراح

قال لي ممشرا يا حين جـندى * أنا سلطانها وشوكى سـلاحى

ثم ناول الثامن حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

رحى الله وردا غدا أصفرا * بهيا تضيرايها كى النضار

وحسن غصون به أثمرت * وجلن منه شموسا صغار

ثم ناول التاسع حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

شجرات وردا صفر جذبت * في قلب كل متم طربا

عجب الهمام دوحه سقبت * ماء اللجين فأثمرت ذهباً

ثم ناول العاشر حزمة ورد فاخذها وأنشد هذين البيتين

الم تر أن جند الورد يزهر * بصفر من مطالعه وجر

وقد شبهته والشوك فيه * نصال زمرذ في ترس تبر

فلما استقر الورد في أيديهم أحضروا البستانى سـفيرة المدام ووضع بينهم صيفيه مزر كشه

والذهب الأحمر وأنشد يقول

هتف الفجر بالسنا فاسق خمرًا • عانسنا نجهل الحليم سفيها
لست أدري من لطفها واصفاها • أبكاس ترى أم الكاس فيها

ثم إن خولى البستان ملاً وشرب ودار الدور إلى أن وصل إلى نور الدين ابن التاجر تاج الدين فلا خولى البستان كاسا وناولها به فقال له نور الدين أنت تعرف أن هذا شيء لا أعرفه ولا شربته قط لأن فيه اثماً كبيراً وقد حرم في كتاب الرب القديم فقال خولى البستان يابسيدي نور الدين إن كنت ما تركت شربه إلا من أجل الأثم فإن الله سبحانه وتعالى كريم - لم يعم غفور رحيم يغفر الذنب العظيم ورحمته وسعت كل شيء ورحمة الله على بعض الشعراء حيث قال

كن كذباً شئت فإن الله ذوكرم • وما عليك أن أذنبت من باس
الاثنين فلا تقربهم - ما أبدا • الشرك بالله والاضرار للناس

ثم قال واحد من أولاد التجار مجباني عليك يابسيدي نور الدين أن تشرب هذا القدر وتقدم شاب آخر وحلب عليه بالطلاق وأخرو قف بين يديه على أقدامه فاستقى نور الدين وأخذ القدر من خولى البستان وشرب منه جرعة ثم بصقها وقال هذا مر فقال له الشاب خولى البستان يابسيدي على نور الدين لولا أنه مر ما كانت فيه هذه المنافع ألم تعلم إن كل دواء إذا كل على سبيل التداوى يجده إلا كل مر أو أن هذه الخمرة منافعها كثيرة فمن جلة منافعها أنها تهضم الطعام وتصرف الهم والغم وتزيل الرياح وتروق الدم وتصفى اللون وتنش البدن وتشجع الجبان وتقوى همه الرجل على الجماع ولوأنا ذكرنا منافعها كلها الطال علينا شرح ذلك وقال بعض الشعراء

شربنا وعفوان الله من كل جانب • وداويت أسقامي بمرتشف الكاس
وما غشني فيها وأعرف اثمها • سوى قوله فيهم أمنا فح للناس

ثم إن خولى البستان نهض قائماً على أقدامه من وقته وساعته وفتح مخدعاً من مخدع ذلك الايوان وأخرج منه قع سكر مكررو وكسر منه قطعة كبيرة ووضعهما النور الدين في القدر وقال له يابسيدي إن كنت هبت شرب الخمر من مرارته فاشرب الآن فقد حلا فعند ذلك أخذ على نور الدين القدر وشربه ثم - لا الكاس واحد من أولاد التجار وقال يابسيدي على نور الدين أنا عبدك وقام آخر وقال أنا خدامك وقام آخر وقال من أجل خاطري وقام آخر وقال بالله عليك يابسيدي على نور الدين أجبر بخاطري ولم يزل أولاد التجار العشرة بنور الدين إلى أن سقوه العشرة أقدر كل واحد قد حاول أن يباطن

الدين بكرهم ما شرب خمر اقطا في تلك الساعة فدار الخمر في دماغه وقوى عليه السكر
فوقف على حبله وقد ثقل لسانه وانجهم كلامه وقال يا جماعة والله انتم ملاح وكلامكم
جلج ومكانكم ملج الا انه يحتاج الى سماع طيب فان الشرب بلا سماع عديمه اولى من
وجوده كما قال الشاعر
أدرها بالكمير وبالصغير * وخذها من يد القمر المنير
ولا تشرب بلا طرب فاني * رأيت الخيل تشرب بالصغير
فقد ذلك فغض الشاب صاحب البستان وركب بغلة من بغال اولاد التجار وغاب ثم عاد
ومعه صبية مصرية كانت االية طرية أوفضة نقية أودينار في صينية أو غزال في برية
بوجهه يجعل الشمس المضية وعيون بابلية وحواجب كانت اقصى مخفيه وخذود ووردية
وأسمان اولوية ومرامش سكرية وعيون مرخية ونهود عاجية وبطن نحاسية
وأعكان مطوية وأرداف كانت مخدات خشية ونخدين كالجداول الشامية وبينهما
شيء كأنه صرة في بقعة مطوية كما قيل فيها

ولو أنما للشركيين تعرضت * رأوا وجهها من دون أصنامهم ربا
ولو أنما في الغرب لاحت لأهاب * نلت على سبيل الشرق واتبع الغربا
ولو تقاتل في البحر والبحر * لاصبح ماء البحر من ريقها عذبا
(وكما قال آخر)

أيهى من البدر كحل العيون بدت * كأنما قنصتها كف آساد
أرخت عليها اليمالى من ذوائنها * بيتا من الشعر لم يشهد باوتاد
من ورد وجنتم النيران ما انتقدت * الا باقصة ذات وأكباد
فلورأها حسان العصر قن لها * على الرأس وقلن الفضل للبادى
(وما أحسن قول بعض الشعراء)

ثلاثة منعها عن زيارتنا * خوف الرقيب وخوف الحامد الخلق
ضوء الجبين ووسواس الحلى وما * حوت معاطفها من عنبر عبق
هب الجبين بفضل الكم تستره * والحلى تنزعها من حيلة العرق
وتلك الصبية كانت البدر اذا بدت في ليلة أربعة عشر وعالم ابد له زرقاء فتناع أخضر فوق
جبين أزهر تدهش العقول وتحيي أرباب المعقول وهي في غاية الحسن والجمال
ورساقه القد والاعتدال كانت المرادة بقول الشاعر

أقبلت في غلالة زرقاء * لاذ وردية كلون السماء
فحققت في الغلالة منها * قرا الصيف في ايام الشتاء

{وما أحسن قول الآخر وأجوده}

جاءت مبرقة فقلت لها اسفري * عن وجهك القمر المنير الازهر
 قالت أخاف العار قلت لها القصري * بمواديث الأيام لا تهـبـرى
 رفعت نقاب الحسن عن وجنتها * فتساقط البثور فوق الجوهر
 ولقد هممت بقتلها من حبها * كيما تكون خصمتي في المحسر
 ونكون أول عاشقين تخاصما * يوم القيامة عند رب أكبر
 وأقول طول في الحساب وقوقنا * حتى بطول الى الحبيبة منظرى
 ثم ان الشاب خولى البستان قال لتلك الصبية اعلمي ياسيدة الملاح وكل كوكب لاح
 أننا مقصودنا بحضورك في هــ هذا المكان الآن تنادى هــ هذا الشاب الملج سدى
 على نور الدين فانه لم يات محلناهـ هذا الا في هــ هذا اليوم فقالت له الصبية لتلك كنت
 أخبرتني لأجل أن أجيء بالذي كان معي فقال لها يا سدى أنا أروح وأجيء به اليك
 فقالت له الصبية اقل ما يدلك فقال لها اعطني أمانة فاعطته منه يدلا فعند ذلك خرج
 مريعا وغاب ساعة زمانة ثم عاد ومعه كيس أخضر من حرير أطلس بشـ كلين من
 الذهب فاخذته الصبية منه وحلته ونفضته فترل منه ثنتان وثلاثون قطعة خشب ثم
 ركبت الخشب في بعضه على صورة ذكر في أنثى وأنتى في ذكر وكشفت عن معصمها
 وأقامته فصار عودا محكوكا بحجروا وصنعة الهندود ثم انحنى عليه تلك الصبية انحناء
 الوالدة على ولدها وزغزغته بانامل يدها فعند ذلك أن العودورث ولما كنه القديمة
 قد حن وتذكر المياه التي قد سقته والارض التي نبت منها وترى فيه اوتدكر
 التجارين الذين قطعوه والدهانين الذين دهنوه والتجار الذين جلبوه والمرالكب
 التي حملته فصرخ وصاح وعددوناح وكانها سأله عن ذلك كله فاجابها بلسان الحال
 مشداهذه الابیات

لقد كنت عودا للابل منزلا * أميل بها وجد اوفرعى أخضر
 ينوحون من فوقی فعملت نوحهم * ومن أجل ذلك النوح سرى بحجر
 رماني بالاذنب على الارض فاطعى * وصيرني عودا فحبالا كاتروا
 واكن ضربي بالانامل مخبر * باني قتييل في الانام مصبر
 فن أجل هذا صار كل منادم * اذا مارأى نوحى بهم ويسكر
 وقد حن المولى على قلوبهم * وقد صرت في أعلى الصدور مصدر
 تعانق قدي كل من فاق حسنها * وكل غزال ناعس انظر فاحور

فلا فرق الله المهيم من بيننا * ولا عاش محبوب يصعد ويهجر
 ثم سكنت الصبية ساعة وبعد ذلك أخذت ذلك المودى هجرها وانحنت عليه انحناء
 الواحدة على ولدها وضربت عليه طرعا عديدة ثم عادت الى طريقته الاولى وأنشدت
 هذه الايات لو انهم خضوا للصب أوزاروا * لحط عنه من الاشواق أوزار
 وعندليب على غصن يشاجره * كأنه عاشق شطت به الدار
 قم واتقه فلبى الى الوصل مقمرة * كأنها باجتماع الشمل أحمار
 واليوم في غفة - لمه عنا حواسدنا * وقد دعيتنا الى الذات أوتار
 أما ترى أربعا لاله - وقد جعت * آس وورد ومشور وتوار
 واليوم قد جعت للحظ أربعة * صب واخل ومشروب ودينار
 فاطفر بحظك في الدنيا فلذتها * تنفي وتبقي روايات وأخبار
 فلما سمع نور الدين من الصبية هذه الايات نظر اليها من الحجة حتى كاد لا يملك نفسه
 من شدة الميل اليها وهي الأخرى كذلك لأنها نظرت الى الجماعة الحاضرين من
 أولاد التجار كلهم والى نور الدين فإنه بينهم كاقمر بين النجوم لأنه كان رخم اللفظ
 والدلال كامل القد والاعتدال والبهاء والجمال الأنف من النسيم وأرق من
 التسليم ثم أنشدت هذه الايات

قسما بوجنته وباسم نغره * وباسهم قد راها من هجره
 وبابن معطفه وببذل لحاظه * وبياض غرته وأسود شعره
 وبجانب حب الكرى عن ناظري * وسطاع علي تنبيه وبامره
 وعقارب قد أرسلت من صدغه * وسعت لقتل العاشقين بهجره
 وبورد خديه وآس عذاره * وعقيق ميسمه وأول نغره
 وبغصن قامته الذي هو مشمر * رمانه يزهو بجناه بصدوره
 وبزدفه المرتج في حركاته * وبكونه وبرقة في خصره
 وحرير ملمسه وخفة ذاته * وبما حواه من الجمال بأسره
 ان الشذا قد فاح من أنفاسه * والريح تروى طيبها عن نشره
 وكذلك الشمس المنيرة دونه * وكذا الهلال قلامه من ظفره
 فلما سمع نور الدين كلام تلك الصبية وشعرها أعجبه نظامها وكان قد مال من السكر
 بجعل يدها ويقول
 هوادة ما لبنتنا * في نشوة المنة منذ قالت لنا أوتارها * أنطقنا الله الذي

فلما تكلم نور الدين بهذا الكلام وأنشد هذا الشعر والنظام فظرت له تلك الصبيحة
بين المحبة وزادت فيه عشقا و غراما وقد صارت متعجبة من حسنه وجماله ورشاقته قد طم
وأعتد له فلم تملك نفسها بل احتضنت العود ثانيا وأنشدت هذه الأبيات

يما تبنى على نظري إليه * وبم سحرتني وروحي في يديه
ويده دني ويعلم ما يقلي * كان الله قد أوحى إليه
كتبته مثاله في وسط كفي * وقلت لنا طري عول عليه
فلا عني ترى عنه بدلا * ولا قلبي يصبرني لديه
فما قلبي تزعمك من فؤادي * لأنك بعض حسادي عليه
إذا ما قلت بأقلامي تسلي * فقلبي لم يعمل إلا له

فلما أنشدت الصبيحة تلك الأبيات تعجب نور الدين من حسن شعرها وبلاغه كلامها
وعذوبة لفظها ولطف نظامها فطار عقله من شدة الغرام والوجد واليهام ولم يقدر
أن يصبر عنها ساعة من الزمان بل مال إليها وضمه إلى صدره ضمة العاشق الواهمان
فانطبقت عليه وصارت بكلمته لديه وقبلته بين عينيه وقبل هوفا ما بعد ضم القوام
ولعب معها في التجميل كزق الحمام فالتفتت له وفعلت معه مثل ما فعل معها فهم
الحاضرون وقاموا على أقدامهم فاستحى على نور الدين ورفع يده عنهما ثم أنها أخذت
عودها وضربت عليه طرائق عديدة ثم عادت إلى الطريقة الأولى وأنشدت هذه
الأبيات

قريب من الجفون إذا انتفى * عضبا وهزأ بالفرال إذا رنا
ملك محاسنه البديعة جنده * ولذا الطعان قوامه يحكي الغنا
لأن رقة خصره في قلبه * ما جارقط على المحب ولا جنى
يا قلبه القامى ورقة خصره * هـ لا تنقلت إلى هنا من ههنا
يا عاذلي في حبه كن عاذري * فلك البقاء بحسنه ولى الغنا

فلما سمع على نور الدين حسن كلامها وبديع نظامها مال إليها من الطرب ولم يملك
عقله من شدة الحب ثم أنه أنشد هذه الأبيات

لقد خلتمنا شمس الضحى ففعلت * لكن لهيب الحمر منها بهجتي
وماذا علم الوأشارت فسلمت * علينا باطراف البنان وأومت
رأى وجهها الأسمى فقال وتاه في * محاسنها اللاتي عن الحسن جلت
أهذي التي قد همت شوقا بحبها * وإنك معذور فقات هي التي
دمتني بسهم اللفظ عمدا وما زنت * لحالي وذلي وانكساري وغربتي

فأصبحت مسلوب الفؤاد متيميا * أنوح وأبكي طول يومى وليلتى
 فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت الصبية من فصاحته ولطافته وأخذت عودها
 وضربت عليه بأحسن حركاتها وأعادت جميع النغمات ثم أنشدت هذه الأبيات
 وحياء وجهك يا حياء الانفس * لاحلت عنك يقست أم لم تيسر
 فائتم جفوت فان طيفك واصل * أو غبت عن عيني فذكرك مؤنس
 يا موحش اطرفى وتعلم اننى * أبدا بغير هالك لم استأنس
 خدك من ورد ورقك خمرة * هلا سمعت بهاب هذا المجلس
 فعند ذلك طرب نور الدين من انشاد تلك الصبية غاية الطرب وتعجب منها غاية العجب
 ثم أجابها على شعرها بهذه الأبيات

ما أسفرت عن محال الشمر فى الغسق * الانحجب بدرالتم فى الافق
 ولا بدت لعبون الصبح طرتها * الا ووذت ذاك الفرق بالقلىق
 خذ من مجارى دموعى فى تسلسلها * وارو حديث الهوى من أقرب الطرق
 ورب رامية بالنبل قلت لها * مهلا ينلك ان القلب فى فرق
 ان كان دمعى لبهر النبل نسبته * فان وذلك منسوب الى الملقى
 قالت فهات جميع المال قلت خذى * قالت ونومك ايضا قلت من مدقى
 فلما سمعت تلك الصبية كلام نور الدين وحسن فصاحته طار عقلها واندهش لبراقته
 احتوى على مجامع قائم افضته الى صدرها وصارت تقبله تقبلا كزق الحمام وكذلك
 هو الاخر قابلهما بتقبيل متلاحق ولكن الفضل السابق وبه قد أن فرغت من تلك
 التقبيلات أخذت العود وأنشدت هذه الأبيات

ويلا ويلي من ملامة عاذلى * أشكوه أم أشكو اليه تعلملى
 يا هاجرى ما كنت أحسب اننى * ألقى الا هانة فى هواك وأنت لى
 عنفت ارباب الصباية بالجوى * وأبحت فيك له اذليلك تذلى
 بالامس كنت ألوم ارباب الهوى * واليوم أعذر كل صب مبتلى
 وان اعترتنى من فراقك شدة * أصبحت أدعوا لله بامعك يا على
 فلما فرغت تلك الصبية من شعرها أنشدت ايضا هذين البيتين

قالت الى العشاق ان لم يسقنا * من ريقه ووريق فى الساسل
 ندعوا اله العالمين يحميننا * ويقول فى الكلى متنا على
 فلما سمع نور الدين من تلك الصبية هذا الكلام والشعر والنظام تعجب من فصاحته

لسانها وشكرها على ظرافة افتتانها وأتت عليها اغاية الثناء فلما سمعت الصبية ثناء نور الدين عليها قامت من وقته وساعتها على قدميها وعلقت جميع ما كان عليها من ثياب ومصاغ وتجردت من ذلك كله ثم جلست على ركبتيه وقبلته بين عينيه وعلى شامئتي خديه ووهبت له جميع ذلك وقالت له اعلم يا حبيب قلبي ان الهدية على مقدار مهديها فقبل نور الدين منها ذلك ثم رده عليها وقبلها في فخما وخديها فلما انقضى ذلك ولم يدم الا لحى القوم رازق الطاوس والبسوم قام نور الدين من ذلك المجلس ووقف على قدميه فقالت الصبية الى ابن ياسيدي فقال لها الى بيت والدي خلفا عليه اولاد التجار انه ينام عندهم فاني وركب بقلته ولم يزل سائرا حتى وصل الى بيت والده فقامت له امه وقالت له يا ولدي ما سبب غيالك الى هذا الوقت والله انك قد شويت على وعلى والدك بغيا بك عنا وقد اشتغلنا بطرنا عليك ثم ان امه تقدمت اليه لتقبله في فقه فشمت منه رائحة الخمر فقالت لاحول ولا قوة الا بالله العلي العظيم يا ولدي كيف بعد الصلاة والعبادة صبرت تشرب الخمر وتعضي من له الخلق والامر فبينما هما في الكلام واذا ابو الده قد اقبل ثم ان نور الدين ارتقى في الفراش ونام فقال ابوه ماله ووالدين هكذا فقالت له امه كان رأسه او جعته من البستان فعند ذلك تقدم له والده ليسانه عن وجهه ويسلم عليه فشم منه رائحة الخمر وكان ذلك التاجر المسمى تاج الدين لا يحب من يشرب الخمر فقال ويلك يا ولدي هل بلغ بك السفة الى هذا الحد حتى تشرب الخمر فلما سمع نور الدين كلام والده رفع يده وهو سكران واطمعه بها فجاءت الاطمة بالامر المقدر على عين والده اليمنى فسالت على خده فوقع على الارض مغشيا عليه واستمر في غشيته ساعة فرشوا عليه ماء الو رد فلما أفاء من غشيته أراد ان يضربه فخنقه امه خلف بالاطلاق من امه انه اذا أصبح الصباح لا بد من قطع يده اليمنى فلما سمعت امه كلام والده ضاق صدرها وخافت على ولدها ولم تزل تداري والده وتأخذ بخاطره الى ان غلب عليه النوم فصبرت الى ان طلع القمر وأتت الى ولدها وقد زال عنه السك كرفق قالت له يا نور الدين ما هذا الفعل القبيح الذي فعلته مع والدك فقال لها وما الذي فعلته مع والدي فقالت انك اطمت يمينك على عينه اليمنى فسالت على خده وقد خلف بالاطلاق انه اذا أصبح الصباح لا بد ان يقطع يدك اليمنى فندم نور الدين على ما وقع منه حيث لا ينفعه الندم فقالت له امه يا ولدي ان هذا الندم لا ينفعك وانما ينبغي لك ان تقوم في هذا الوقت وتهرب وتطلب النجاة لنفسك وتختفي عند خروجه حتى تصل الى احد من احمالك وتتظلم ما يغفل الله فانه ينبر حالاً جديحاً ثم ان امه دفعت صندوق المال وأخرجت منه كيسا فيه مائة دينار وقالت له

ياولدى خذ هذه الدنانير واستعن بها على مصالح حالك فاذا فرغت منك ياولدى فارسل
اعلمنى حتى ارسل اليك غيرهما واذ ارسلتني فارسل الى اخبارك سرافعل الله ان يقدر
لك فرجا وتعود الى منزلك ثم انما اردعته وبكت البكاء الشديد الذي ما عليه من مزيد
فعمد ذلك اخذ نور الدين كيس الدنانير من أمه وأراد ان يخرج فرأى كيسا كبيرا قد
غسبه أمه بجنب الصندوق فيه ألف دينار فاخذته نور الدين ثم ربط الاثنين على وسطه
وخرج من الزقاق وتوجه قبل الفجر الى جهة بولاق فلما أصبح أصبح الصباح وقامت
الخلايق فوجد الملك الفتحا وخرج كل واحد منهم الى مقصده ليحصل ما قسم الله تعالى
له كان نور الدين وصل الى بولاق فصار عشي على ساحل البحر فرأى مركبا قال لها مدودة
والناس تطلع فيها وتنزل منها وراسها أربع مدقوق في البر ورأى البهريه واقفين
فقال لهم نور الدين الى أين أنتم مسافرون فقالوا له الى مدينة الاسكندرية فقال لهم
نور الدين خذوني معكم فقالوا أهلا وسهلا ومرحبا بك يا شاب يا لمع فعمد ذلك نهض نور
الدين من وقته وساعته ومضى الى السوق وأخذ ما يحتاج اليه من زوائد وفرش وغطاء
ثم رجع الى المركب وكانت تلك المركب تجهزت للسفر فلما نزل نور الدين في المركب علم
تلك الاقليس لاوسارت من وقته وساعته ولم تنزل تلك المركب سايرة حتى وصلت الى
مدينة رشيد فلما وصلوا الى هناك رأى نور الدين زورا قاصغا سايرا الى الاسكندرية
فنزل فيه وعدى الخراج ولم يزل سايرا الى أن وصل قنطرة تسمى قنطرة الجامي فطلع نور
الدين من ذلك الزورق ودخل من باب يقال له باب السدرة وقد ستر الله عليه ظم
منظره أحد من الواقفين بالباب فحشى نور الدين حتى دخل مدينة الاسكندرية فرأى
مدينة حصينة الاسوار حسنة المنزهات تلذ لسكانها وترغب في استقامتها اقدولى عنها
فوصل الشتاء ببرد وأقبل عليه ا فصل الربيع يورده وازدهت أزهارها وأورقت
أشجارها وأبنت أثمارها وقد فقت أنهارها وهي مدينة مليحة الهندسة والقياس
وأهلها أجناد من خيار الناس اذا غلقت أبوابها أمنت أصحابها وهي كاقبل فيها هذه

الايات
اسكندرية صفها * فقال نغم لمج * قلت وفيها معاش * فقال ان هب ربح
(وقال فيها ايضا بعض الشعراء)

اسكندرية نغم * رضاه يستطاب * ما أحسن الوصل فيها * ان لم يصم اغراب
فحشى نور الدين في تلك المدينة ولم يزل ماشيا فيها الى أن وصل الى سوق النجارين ثم الى
سوق الصرافين ثم الى سوق النقلة ثم الى سوق الفكهاية ثم الى سوق العطارين وهو

متجهب من تلك المدينة لان وصفها قد شا كل اسمها فيينا ما هو عشي في سوق العطارين
 واذا برجل كبير السن نزل من مكانه وسلم عليه ثم اخذته من يده ومضى به الى منزله فرأى
 غورا الدين زقا فاما لم يهاكم نوسا مرشوشا قد هب عليه النسيم وراق وظلانه من الاشجار
 أوراق وفي ذلك الزقاق ثلاث دور وفي صدر ذلك الزقاق دارا اسمها راسخ في الماء
 وجد رانها شاهقة الى عنان السماء قد كنسوا الساحة التي قدامها ورشوها وتشم روائح
 الازهار قاصدوها بقبابها النسيم كأنه من جنات النعيم فاول ذلك الزقاق مكناوس
 مرشوش وآخره بالخام مغروش فدخل الشيخ بنور الدين الى تلك الدار وقد دم له شيئا
 من الماء كول وأكل معه فلما فرغ من الاكل قال له الشيخ متى كان القدوم من مدينة
 مصر فقال له يا والدي في هذه الليلة قال له ما سميت قال علي نور الدين فقال له وما اسم
 أبيك فقال له تاج الدين فقال له الشيخ فيج يا ولدي يا نور الدين يا زماني الطلاق ثلاثا نلت
 مادمت مقبلا في هذه المدينة لا تفارقني وأنا أخذك الى لك موضعا تنسكن فيه فقال له نور
 الدين يا سيدي الشيخ زدني بك معرفة فقال يا ولدي اعلم اني دخلت مصر في بعض السنين
 متجارة فبعيتها فيها واشتريت متجرا آخر فاحتجت الى ألف دينار فوزنها عني والدك تاج
 الدين من غير معرفة له بي لم يكتب علي بها منشورا وصبر علي بها الى ان رحمت الي هذه
 المدينة وأرسلتم اليه مع بعض غلمان ومعه هادية وقد رأيتك وأنت صغير وان شاء الله
 تعالي احازيك ببعض ما فعل والدك معي فلما سمع نور الدين هذا الكلام أظهر الفرح
 والابتسام وأخرج الكيس الذي فيه الاف دينار وأعطاه لذلك الشيخ وقال له خذها
 وديعة عندك حتى اشتري بها شيئا من البضائع لا تتجر فيه ثم ان نور الدين أقام في مدينة
 الكندرية مدة أيام وهو يتفرج في كل يوم في شارع من شوارعها وياكل ويشرب
 ويتلذذ ويطلب الى ان فرغت منه المائة دينار التي كانت معه برسم النفقة فأتى الى الشيخ
 العطار ليأخذ منه شيئا من الاف دينار برفقة فلم يجد في الدكان فجلس في الدكان
 ينتظره الى ان يعود وصار يتفرج على التجار ويتأمل ذات اليمين وذات اليسار فيينا
 هو كذلك واذا بالعجمي قد أقبل على السوق وهو راكب على بغلة وخلفه جارية كأنها
 فضة نقية أو باطية في فسقية أو غزالة في بريبة بوجهه يخجل الشمس المضيئة وعيون
 بالية ونهود عاجية واسنان لؤلؤية وبطن خصاصة وأعطاف مطوية وسبقان كاطراف
 لينة كاملة الحسن والجمال ورشاقة القدوال اعتدال كما قال فيهم بعض واصفها
 كأنها مثل ما نهواه قد خلقت في رونق الحسن لا طول ولا قصر

الورد من تحدها يحمر من جمل * والنصف من قدها يزهر به الثمر
فالبدر طلعنها والمسك نكهتها * والنصف من قامتها مثلها بشر
كانها أفرغت من ماء أثاثة * في كل جارحة من جسمها قر

ثم إن الأعجمي نزل عن بئله، وأنزل الصبية وصاح على الدلال فحضر بين يديه فقال له
خذ هذه الجارية وناد عليها في السوق فأخذها الدلال ونزل بها إلى السوق وغاب ساعة
ثم عاد ومعه كرسى من الآبنوس مزركش بالعماج الأبيض فوضعه الدلال على الأرض
وأجلس عليه تلك الصبية ثم كشف القناع عن وجهها فبان من تحتها وجهه كأنه تريس
ديلي أو كوكب دري وهي كأنها البدر إذا بدر في ليلة أربعة عشر بناية الجمال الباهر كما
قال فيها الشاعر

قد عارض البدر جها لاجس صورتها * فراح منكسفاً وانشق بالغضب
وسرحه البان أن قيس بقامتها * تبت يداها إذا جمالة الخطب
(وما أحسن قول الآخر)

قل للبيعة في الخمار المذهب * ماذا فعلت به أيدي متهرب
نور الخمار ونور وجهك تحته * هزم ما ضوئهم ما جيتوش الغيب
وإذا أتى طرفي ليسرق نظرة * في الخلد حراس رمته بكوكب

فعند ذلك قال الدلال للتجار كم دفعتم في درة القواص وقنية القناص فقال له تاجرون
التجار على بمائة دينار وقال آخر بمائتين وقال آخر بثلاثمائة ولم يزل التجار يتزايدون
في تلك الجارية إلى أن أوصلوا ثمنها إلى تسعمائة وخمسين ديناراً وتوقف البيع على
الايجاب والقبول فعند ذلك أقبل الدلال على الأعجمي سيدها وقال له إن جاريته تبلغ
ثمن تسعمائة وخمسين ديناراً فهل تبسع ونقبض لك الثمن فقال الأعجمي هل هي راضية
بذلك فاني أحب مراعاة خاطرها لاني ضعفت في هذه السفرة وخدمتني هذه الجارية
تجارية الخدمة مخافت أني لأبيعه إلا لمن تشتهي وتريد وجعلت بيعها بيد هافشاورها
فان قالت رضيت فبعها لمن أرادته وان قالت لا فلا تبعها فعند ذلك تقدم الدلال إليها
وقال لها يا سيدي الملاح اعلمي أن سيدك قد جعل بيعك بيدك وقد بلغ ثمنك تسعمائة
 وخمسين ديناراً أفأنت ذنبت لي أن أبيعك فقال الجارية للدلال أرني الذي يريد أن
يشتريني قبل أن أعقد البيع فعند ذلك جاء الدلال بها إلى رجل من التجار وهو شيخ كبير
هرم فنظرت إليه الجارية ساعة زمانية وبعد ذلك التفتت إلى الدلال وقالت له يا دلال
هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك فقال لها الدلال لا شيء يا سيدي الملاح تقولين لي

هذا الكلام فقالت له الجارية أيحل لك من الله أن تبيع مثلي أهـ هذا الشيخ الهرم الذي
قال في شأن زوجته هذه الآيات

تقول لي وهي غصني من تدلها * وقد دعني إلى شيء فما كانا
أن لم تنكني نيك المرزوجه * فلا تلي إذا أصهت قرنا
كان أبري شمع من رخاونه * فكلما عركته راحتي لانا
وقال في إبره أيضا لي أبرينام أو ماوش— واما * كلما نلت من حبيب وصالانه
واذا ما غدوت في البيت فردا * طلب الطمن وحده والفرالا
وقال في إبره أيضا ولي أبرسوه كثير الجفا * يعامل بالاثوم من بكرمه
إذا نمت قام وانفتنا * م فلا رحم الله من برحه

فلما سمع شيخ التجار من تلك الصبية هذا الهجوا غاظ الغبط الشديد الذي ما عليه من
مزید وقال للدلال بالنفس الدلائن ما حدث لنا في السوق الايجارية مثـ ومة تجترى
على وتهجوني بين التجار فمن ذلك أخذها الدلال وانصرف عنه وقال لها يا سيدتي
لا تكوني قليلة الادب ان هذا الشيخ الذي هجوتيه هو شيخ السوق ومحتسبه وصاحب
مشورة التجار فضحك وانشدت هذين البيتين

يصلح للحكام في عصرنا * وذلك للحكام مما يجب
الشنق للوالى على بابه * والضرب بالدره للمحتسب

ثم ان تلك الجارية قالت للدلال والله يا سيدى أنا لا أبيع لهذا الشيخ فبني لغيره لانه ربما
نحل مني فباعني إلى آخر فاصـ برعتمه ولا ينبغي لي أن أدنس نفسي بالامتنان وقد
علمت أن أمرى به مفضول الى فقال لها الدلال ما واطاعة ثم توجه بها الى رجل من
التجار الكبار فلما وصل بها الى ذلك الرجل قال لها يا سيدتي هل أسعك لسمدى شريف
الدين هذا بنسعمائة وخمسين ديناراً فنظرت البه الجارية فرأته شيخاً ولكن لمسته
مصبوغة فقالت للدلال هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك حتى تبغى لى لهذا الشيخ
الفانى فهل أنا من كنتك المشاق أو من مهلهل الاخلاق حتى تطوفى على شيخ بعد
شيخ وكلاهـ ما كمد آيل الى السقوط أو عفريت محقه النجم بالمهبط أما الاول فا
نطق لسان الحال فيه بقول من قال

طلبت قبلتها في نغرها فبكيت * بدردمع على الخدين منتظم
ثم انشئت كنزال وهي قائلـ * لاوالذى أوجد الاشياء من عدم
ما كان لي في بياض الشيب من أرب * أفى الحياة يكون القطن حشوفى

وما أحسن قول الشاعر قالوا بياض الشعر نور ماطع • يكسو والوجه بهابة وضياء
حتى بدا خط المشيب بغير فرق • فوددت أن لأعدم الظلماء
لو أن لحيمة من يشيب بصفحة • بمعاده ما اختارها بيبضاء
(وما أحسن منه قول الآخر)
ضيف البراءى غير محتشم • السيف أحسن فعلامنه بالهم
أبعد بعدت بياضا لا يبيض له • لانت أسودى عيني من الظلم
وأما الآخر فانه ذو عيب وريب • ومسود وجه الشيب قد أتى في خضاب شبيهه باقم
مين وأنشدت هذين البيتين

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها • كتمته عنك يا مهي وبابصرى
فقهمت ثم قالت ان ذاعجب • تكاثر القش حتى صار في الشعر
(وما أحسن قول الشاعر)

يا من يخضب بالسـواد مشبهه • كي يستقر له الشباب ويحصل
هالك اخضب بسواد حطى مرة • ولك الضمان بأنه لا ينصل

فلما سمع الشيخ الذي صيغ لحيته من تلك الجارية هذا الكلام اغتاط الغيط الشديد الذي
ما عليه من مزبد وقال يا أنحس الدلائن ما جئت في هذا اليوم سوقنا إلا بحارية سفينة
تسفه على كل من في السوق واحدا بعد واحد ونحوهم بالأشعار والكلام الغشارم
ان ذلك التاجر نزل من دكانه وضرب الدلال على وجهه فاعلمه الدلال ورجع بها
وهو غضبان وقال والله ما رأيت عمرى جارية أقل حياء منك وقد قطعت رزقي ورزقك
في هذا المار وقد بضنتني من أجلك جميع التجار فقرأهم في الطريق رجلا من التجار
فزاد في ثمنها عشرة دنانير وكان اسم ذلك التاجر شهاب الدين فاستأذن الدلال الجارية
في البيع فقالت أرني أياه حتى أنظر إليه وأسأله عن حاجة فان كانت تلك الحاجة في
بينه فانا أبايع له والا فلا فلاها الدلال واقفة ثم تقدم اليه وقال له يا سيدي شهاب الدين
أعلم ان هذه الجارية قالت لي انها تريد أن تسالك عن حاجة فان كانت عندك فانه أبايع
لك وهما أنت قد سمعت ما قالته لا يحاد من التجار وانى والله خائف أن أجي بها الذي
فتعمل معك مثل ما عملت مع جيرانك وأبقى أنا معك مفضوحا ما أذنت لي في المجرى
بها البك فعلت فقال له انتى بها فقال الدلال سمع ما وطاعة ثم ذهب الدلال وانى بالجارية
اليه فنظرته الجارية وقالت له يا سيدي شهاب الدين هل في بيتك مدورات محشوة
بقطاعة غمر والسجاب فقال لها نعم يا سيدي الملاح عندى في البيت عشر مدورات محشوة

يقطعهم - تقرأوا السجاب في الله عليك ماذا تصنعين به المديورات فقامت أصبر عليك
حتى ترق - دواجمها على قلبك وأنفك - حتى تموت ثم انهما التفتت الى الدلال وقالت له
يا أحسن الدلائل انك كائنك مجنون حتى تعرضني من منذ ساعة على اثنين من الشيوخ في
كل واحد منهما عيان وبعد ذلك تعرضني على سدي شهاب الدين وفيه ثلاث عيوب
الاول انه قصير والثاني أن أنفه كبير والثالث أن لحته طويلة وقد قال فيه بعض

الشعراء مارأينا ولا سمعنا بشخص * مثل هذا بين الخلائق أجمع

فله لحية ذراع وأقف * طول شعر وقامة طول أصبع

{وقال بعضهم ايضا} منارة الجامع في وجهه * كهية الخنصر في الخاتم

لودخل العالم في أنفه * أصبعه اليد والاعمال

فلما سمع التاجر شهاب الدين من الجارية بذلك الكلام نزل من الدكان وأخذ بطوق
الدلال وقال له يا أحسن الدلائل كيف تأتي التبايحارية توبخنا ونم - بمونا واحد بعد
واحد بالاشعار والكلام القصار فمئذ ذلك أخذها الدلال وذهب من بين يديه وقال لها
وانت طول عمرى وانافى هذه الصناعة مارأيت جارية أقل أرباعك ولا أحسن على من
تجمل لك لئلا قد قطعت رزقى في هذا اليوم ولا رجحت منك الا الصفع على القفا والاخذ
بالطوق ثم ان الدلال وقف بملك الجارية ابضا على تاجر صاحب عسود غلمان وقال
ها أتباعين لهذا التاجر سيدي علاء الدين فنظرتة فوجدته احذب فقالت ان هذا
احذب وقد قال فيه الشاعر

قصرت منك به وطال فقاره * فحكاه شيطان بصادف كوكبا

وكانه قد خاف أول مرة * واحس ثانية قصار محبدا

{وقال فيه ايضا} اذا رقى احدكم بيلة * صار بها بين الورى مثله

اماله الضحك فلا تجبوا * ان حقلت من تحته البقلة

وقال فيه ايضا بعض الشعراء ولرب احذب زادى حدياته * فها وقاطبة العيون تجسه
فكأنه غصن تقاص يابس * ولواءه من طول المدى أثره

فمئذ ذلك اسرع الدلال اليها وأخذها وأتى بها الى تاجر آخر وقال لها أتبعين لهذا
فنظرت اليه فوجدته أعشى فقالت ان هذا أعشى كيف تبغين له وقد قال فيه بعض

الشعراء رمديه اراضه * هدت قواه لحية

ما قوم قوموا فانظروا * هذا القذى في عينه

فمئذ ذلك أخذها الدلال وأتى بها الى تاجر آخر وقال لها أتبعين لهذا فنظرت اليه

فراة لحية كبيرة ففالت للدلال و يلاك ان هذا الرجل كيش و لكن طالع ذيله من
حلقه كيف تبني له بالنفس الدلائل اما سمعت ان كل طويل الذقن قليل العقل وعلى
قدر طول اللحية يكون نقصان العقل وهذا امر مشهور بين العقلاء كما قال بعض الشعراء
مارجل طال له لحيته * فزادت اللحية في هيئته

الاوما ينقص من عقله * يكون طولاً زاد في لحيته
وكما قال بعض الشعراء أيضاً لناس صديق وله لحيته * طولها الله بالغاثة

كانها بعض لما الى الشتا * عطاوية مظلمة بارده
فعند ذلك اخذها الدلال ورجع فقالت له الى اين تتوجه بنى فقال لها الى سبيك
الاعجمى وكفانا ما جرى لنا بسبيك في هذا النهار وقد تسببت في منع رزقي ورزقه بقله
أدبك ثم ان الجارية نظرت في السوق والتفتت عندها وشمالا لا فوق نظرها بالامر المقدر
على نور الدين على المصرى فرأته شابا مليحاً بنى ان قد رشيق القدوه وابن أربعة عشر سنة
بديع الحسن والجمال والظرف والدلال كأنه البدر اذا بدى في ليله أربعة عشر مجيبين
أزهر وخذأحمر وعنى كالمرمر وأسنان كالجوهر ووريق أحلى من السكر كما قال فيه بعض
واصفيه بدناتها كى حسنه وجماله * بدور وغزلان فقلت لها قفى
رويدك يا غزلان لا تشبهى * به ذوايا قمار لا تنكفى
(وما أحسن قول بعض الشعراء)

ومهفهف من شعره وجبينه * تغدو الورى في ظلمة وضياء
لا تنكر والجمال الذى في خده * كل الشقيق بنقطة سوداء
فلما نظرت تلك الجارية الى نور الدين حال بينهما وبين عقلاها وقع في خاطرهما موقعا
عظيما وتعلق قلبها بجمته فالتفتت الى الدلال وقالت له هل هذا الشاب التاجر الذى هو
حالم بين التجار وعليه الفرجية الجوخ العودى مازاد في ثنى شبهة أقوالها الدلال
بأسناده الملاح ان هذا الشاب غريب مصرى والده من أكابر التجار بمصر وله الفضل
على جميع تجارها وأكابرها وله مدة يسيرة في هذه المدينة وهو مقيم عند رجل من
أصحاب أجيح ولم يتكلم فيك بزيادة ولا نقصان فلما سمعت الجارية كلام الدلال نزعته
من أصداءها خاتم ياقوت ممتنا وقالت للدلال أوصلى عنده هذا الشاب المليح فان اشتراى
كان هذا الخاتم لك في نظير تعبك في هذا اليوم معنا ففرح الدلال وتوجه به الى نور
الدين فلما صارت عنده تأملته فرأته كأنه بدر تمام لانه ظريف الجمال رشيق القد
والاعتدال كما قال فيه بعض واصفيه

صفاني وجهه ماء الجمال * ومن الحناظرة رمي النبال * وشرب كل صب ان سقاها
 عن حدوده والوصل حالي * فغرة وقامتة وعشقي * كمال في كمال في كمال
 وان غلائل الاثواب منه * مزرة على طوق الهلال * ومقاتته ونحلاه ودمي
 لمبال في لمبال في لمبال * وحاجبه وطلعتة وجسمي * هلال في هلال في هلال
 وطافت مقلته بكاس خمر * على انشاق ان يمر رحلالي * وارشفني على ظمازالا
 بياهم ثمره يوم الوصال * فقتلى عنده ودمي لديه * حلال في حلال في حلال
 ثم ان الجارية نظرت الى نور الدين وقالت له يا سيدي يا الله عليك اما انا مليحة فقال
 لها يا سيدي الملاح وبدر كل كوكب لاح وهل في الدنيا احسن منك فقال لها الجارية
 ولاي شئ رأيت التجار كهـم زادوا في ثمنى وانت ساكت مائة كملت بشئ ولازدت في
 ثمنى دينار واحد اكانى ما اعجبك يا سيدي فقال لها يا سيدي لو كنت في بلدى كنت
 اشترى منك بجميع مائة ما لكه يدى من المال فقالت له يا سيدي انا ما قلت لك اشترى
 على غير مرادك واكن لوزدت في ثمنى شيئا ليجرب بخاطري ولو كنت لا تشترى لاجل ان
 نقول التجار لولا ان هذا الجارية مليحة ما زاد في هذا التاجر المصرى لان اهل مصر لهم
 خبرة بالحوارى فعند ذلك استخفى نور الدين من كلام الجارية الذى ذكرته واحمر وجهه
 وقال للدلال كم بلغ ثمن هذه الجارية قال بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينار غير الدلالة
 واما قانون السـاطن فانه على البائع فقال نور الدين للدلال خلها على بالف دينار دلالة
 وثمنها قدرت الجارية وتركت الدلال وقالت بعث نفسك لهذا الشاب الملعج بالف دينار
 فسكت نور الدين فقال واحد بعناه وقال آخر يستاهل وقال آخر مملون ابن مملون
 من يزيد بعد هذا وقال آخر والله انهما يصلمان لبعضهما فلم يشعر نور الدين الا والدلال
 احضر القضاء والشهود وكتبوا عقد البيع والشراء فى ورقة وناراه النور الدين وقال له
 قسـم جارىـنك الله يجعلها مباركة عليك لا تصـلح الا لك ولا تصـلح انت الا لها وانشد الدلال
 هذين البيتين
 انه السعادة مقادة * الله تخرجوا ذبا لها
 فلم تك تصـلح الا له * ولم يك يصـلح الا لها

فعند ذلك استخفى نور الدين من التجار وقام من وقته وساعته ووزن الاف دينار التي كان
 وضعها وديعة عند العطار صاحب أبيه واخذ الجارية واتى بها الى البيت الذى أسكنه فيه
 الشيخ العطار فلما دخلت الجارية الى البيت رأت فيه بساطا خلقا وطماعيا فقال له
 يا سيدي هل انا مالى منزلة عندك حتى تجعلني في غير بيتك الاصلى الذى فيه مصالحك
 ولاي شئ ما دخلت بي عنده ابيك فقال لها نور الدين والله يا سيدي الملاح ما هذا بيتي

الذي أنافيه واكنه ملك شيخ عطار من أهل هذه المدينة وقد أخلاه لي وأسكنني فيه وقد
قلت لك اتني غريب واتني من أولاد مدينة مصر فقالت له الجارية يا سيدي أقبل
اليوم بكفي إلى أن تطالع إلى بلدك ولكن يا سيدي بالله عليك أن تقوم وتأتي لنا
بشيء من اللحم المشوي والمداوم والنقل والفاكهة فقال لها نور الدين والله يا سيدي الملاح
ما كان عندي من المال غير الألف دينار التي وزنتها في ثمنك ولا أم لك غير تلك الدنانير
شيء من المال وكان معي بعض دراهم صرفتها بالأمس فقالت له أم لك في هذه المدينة
صديق تقتض منه خمسين درهما وتأتي بها حتى أقول لك أي شيء تفعل بها فقال لها
حالي صديق سوى العطار ثم قام من وقته وتوجه إلى العطار وقال له السلام عليك يا عم
قد رعد عليه السلام وقال له يا ولدي أي شيء اشتريت بالآلاف دينار في هذا اليوم فقال له
اشتريت بها جارية فقال له يا ولدي هل أصابك جنون حتى تشتري جارية واحدة بالآلاف
دينار قالت شعري ما جنس هذه الجارية فقال له نور الدين يا عم انها جارية من أولاد
الأفريق فقال له الشيخ اعلم يا ولدي ان خيار أولاد الأفريق عندنا في هذه المدينة ثمنه مائة
دينار ولكن والله يا ولدي قد سمعت عليك حيلة في هذه الجارية فان كنت أحبيها
فبعت عندها في هذه الليلة واقتض غرضك منها وأصبح فانزل بها السوق وبها ولو كنت
تخسر قيم مائة دينار وقد رآها غرقت في البحر أو طلع عليك المصوص في الطريق
فقال نور الدين كلامك صحيح ولكن يا عم أنت تعرف أنه ما كان معي غير الألف دينار التي
اشتريت بها هذه الجارية ولم يبق معي شيء أنفقه ولا درهم واحد وإني أريد من فضلك
واحسانك أن تقرضني خمسين درهما أنفقها إلى غد فأبيع الجارية وأردها لك من ثمنها
فقال الشيخ أعطك يا ولدي على الرأس والعين ثم وزن له خمسين درهما وقال له يا ولدي
أنت شاب صغير السن وهذه الجارية مريحة وربما تعلق بها قلبك فيا هون عليك أن
تبعتها وأنت ما تملك شيئا تنفقه فتفرغ منك هذه الخمسون درهما فتأتي فاقرضك أول
مرة وثاني مرة وثالث مرة إلى عشرة مرات فإذا أتيتني بعد ذلك فلا أرد عليك السلام
الشرعي ونضيق محبتنا مع والدك ثم ناوله الشيخ خمسين درهما فأخذها نور الدين وأتى
بها إلى الجارية فقالت له يا سيدي روح إلى السوق في هذه الساعة وهات لنا بعض من
دراهم حريمنا خمسة ألوان وهات لنا ثلاثين درهما للجواخير وأفاكهة وشرايا
ومشهور ما عند ذلك ذهب نور الدين إلى السوق واشترى كل ما طلبته تلك الجارية وأتى به
إليها فقامت من وقتها وساعتها وشرفت عن يديها وطبخت طعاما فاخرا وأثقت به غاية
الاتقان ثم قدمت له الطعام فأكل وأكلت معه حتى اكتفيتم قدمت المداوم وشربت

هي واياه ولم تزل تسقيه وتؤانسـه الى أن سكر فقامت الجارية من وقتها وساعتها
وأخرجت من بطنها جرابا من أديم طائفي وفحته وأخرجت منه مسمارين وقعدت
فعملت شغلها الى أن فرغ فصار زائرا ما يضاف لفته في خرقه بعد صقله وتنظيفه وجعلته
تحت الحدة ثم قامت فتمرت ونامت بجانب نور الدين وكبسته فانتبه من نومه فوجد
بجانبه ضيعة كانتا فضة نقية أنعم من الحرير وأطرى من اللثة وهي أشهر من علم
وأحسن من حجر النعم خماسية القد قاعدة النهد بمجواب كانتا قسي السهام وعيون
كانتا عيون غزلان وخدود كانتا شقائق النعمان وبطن كانتا صلبة الاعكان وسرة
تسع أوقية من دهن البان ونفذين كانتا محذتان محشوتان من ريش النعام وبينهما
شيء يكل عن وصفه اللسان وتذكبه عند وصفه العبرات فكان الشاعر قصدها بهذه
الآيات فمن شعرها ليل ومن فرقها فجر * ومن خدوها ورد من ريقها اخمر
ومن وصلها ما أرى ومن هجرها الظي * ومن ثغرها درود من وجهها بدر
(وما أحسن قول بعض الشعراء)

بذبت قرا وما ست غصن بان * وناحت عنبر اورنت غزالا كان الحزن مشغوف بقلبي
* قساعة هجرها يجد الوصال لها وجه يفوق عني الثريا * ونور جبينها فاق الهلالا
وقال بعضهم أيضا سفرن بدورا وانجليبن أهلة * ومسمن غصونا والتفتن جاذرا
وفيهن كحللاء العيون لحسنا * تودا الثريا أن تكون لها ثرى
فعند ذلك التفت نور الدين من وقته وساعته الى تلك الجارية وضمها الى صدره ومص
شفتي الفوقية بعد أن مص التحيبة ثم زرق اللسان بين الشفتين وقام اليها فوجدها دارة
ماتت ومطمة لغيره ماركبت فازال بكارتها ونال منها الوصال وانعدت بينهما المحبة
بلا انكسالك ولا انفصال وتابع في خدتها تقيلا كوقع الحصى في الماء ورزقا كطعن
الرماح في المهرة الشعواء لان نور الدين كان مشتاقا الى اعتناق الحور وبص الثغور
وغز الخصور وعض الخدود وضم الثود مع حركات مصرية وغنج عمانية وشهيق
حبسه وفتور هندية ورغلة نوبية وتضجير يغبة وأنين دمياطية وحرارة صعيدية
وقرة سكندرية وكانت هذه الجارية جامعة لهذه الاتصال مع فرط الجمال والدلال
كما قال فيها الشاعر المفضل

هذي التي أنا طول الدهر ناسيا * فلا جئت الى من ليس يدنيا
كانها البدر في تكوين صورتها * سبهان خالقة سبهان باريها
ان كان ذنبي عظيم ما في محبتها * فليس لي توبة يوما أرجيها

قد صيرتني حزينا ساها ردينا * والقلب قد حار فذكراني معانيها
 وأنشدت بيت شعرا ليس يعرفه * الا فتى لقوا في الشعر برويها
 لا يعرف الشوق الا من يكاديه * ولا الاصابة الا من زمانها
 ثم نام نور الدين مع تلك الجارية الى الصباح في لذته وانشرح لاسين جلال العناق محكمة
 الا زرار آمنين طوارق الليل والنهار وقد بانا على أحسن حال ولم يخشيان أحد الوصال
 ولا كثرة القيل والقال كما قال فيها الشاعر المفضل

زمن نحب ودع مقالة حاسد * ليس المحسود على الهوى بمساعد
 لم يخفق الرحمن أحسن منظرا * من عاشقين على فراش واحد
 متعاقبين عليهم ما حل الرضا * متوسدين بهضم وبسعد
 واذا تأملت القلوب على الهوى * فالناس تضرب في حديد بارد
 يامن يلوم على الهوى أهل الهوى * هل تستطيع صلاح قلب فاسد
 واذا صفا لك من زمانك واحد * نعم الصديق وعش بذلك الواحد
 فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح انتبه نور الدين من نومه فزراها أحضرت الماء
 فغسل هو واباها وأدى ما عليه من الصلاة لربه ثم أتته بما تبسر من المأكول والمشروب
 فأكل وشرب ثم أدخلت الجارية يدها تحت المحدة وأخرجت الزنار الذي صنفته بالليل
 وناولته اياه وقالت له يا سدي خذ هذا الزنار فقال لها من أين هذا الزنار فقالت يا سدي
 هو الخبز الذي اشتريته البارحة بثلاثة شربين درهما فقم وأذهب به الى سوق الجهم وأعطه
 للدلال لينادي عليه ولا تبعه الا بعشرين دينارا سألته ليدك فقال لها نور الدين يا سدة
 الملاح هل شيء بعشرين درهما يباع بعشرين دينارا يعمل في ليلة واحدة فقالت له الجارية
 يا سدي أنت ما تعرف قيمة هذا ولكن أذهب به الى السوق وأعطه للدلال فاذا نادى
 عليه الدلال ظهرت لك قيمته ففعل ذلك أخذ نور الدين الزنار من الجارية وتواقي به الى
 سوق الاعاجم وأعطى الزنار للدلال وأمره أن ينادي عليه ووقع نور الدين على مصطبة
 فكان فتاب الدلال عنه ساعة ثم أتى اليه وقال له يا سدي قم فاقبض ثمن زنارك فقد بلغ
 عشرين دينارا سألته ليدك فلما سمع نور الدين كلام الدلال تعجب غاية العجب واهتز من
 الطرب وقام ليقبض العشرين دينارا وهو ما بين مصدق ومكذب فلما قبض الدنانير
 ذهب من ساعة واشترى بها كاهن حرا من سائر الألوان لتعمله الجارية كاهن زنا سير ثم
 رجع الى البيت وأعطاهم الخبر وروى وقال لها اعمليه كاهن زنا سير وعلمني أيضا حتى أعمل
 معك فاني أطول عمري ما رأيت صنعة أحسن من هذه الصنعة ولا أكثر مكسبا منها قط

وانها والله أحسن من التجارة بالف مرة فنهكت الجارية من كلامه وقالت له يا سيدي نور الدين امض الى صاحبك العطار واقترض منه ثلاثين درهما وفي غدا دفعها له من ثمن الزنار مع الخمسين درهما التي اقترضتها منه قبلها فقام نور الدين وأتى الى صاحبه العطار وقال له يا عم أقرضني ثلاثين درهما وفي غدا شاء الله تعالى آجي لك بالثمانين درهما جلة واحدة فعمد ذلك وزن له الشيخ العطار ثلاثين درهما فأخذها نور الدين وأتى بها الى السوق واشترى بها الجواهر ونقلا وفاكهة ومشهوما ومشروبيا كما فعل بالأمس وأتى به الى الجارية وكان اسم تلك الجارية مريم الزنارية فأخذت اللحم وقامت من وقتها وساعتها وهبات طعاما فاخرا ووضعت قدما سيدها نور الدين ثم بددت ذلك هيأت سفرة المدام ووقدت مهي وياها وصارت عملا وتسقيمه وهو يعلم ويسقيها فلما لعب المدام بعقلها ما أعجبها حسن لطافتها ورقة معانيه فأنشدت هذين البيتين

أقول لاهيف حيانكاس * لها من مسك نكهته ختام

أمن خديك تعصر قال كلا * متى عصرت من الورد المدام

ولم تزل تلك الجارية تتنادم نور الدين ويناديهما وتعاطفه الكاس والطاس وتطلب أن عملا لها ويسقيها ما تطيب به الأنفاس وأذا وضع يده عليها تمنع منه دلالا وقد زادها السكر حسنا وجالا وأنشدت هذين البيتين

وهفاء تهوى الراح قالت لصيها * بمجلس أنس وهو يخشى ملالها

إذا لم تدر كاس المدام وتسقي * أبيتك مهورا نخاف ملالها

ولم يزل كذلك الى ان غلب عليه السكر ونام فقامت هي من وقتها وساعتها وعملت شغلها في الزنار على جرى عادتها وما فرغت من عملها فيه أصلحته وولفته في ورقة ثم نعتت بابها ونامت بجانبه الى الصباح وكان ما بينهما ما كان من الوصال ثم قام نور الدين وقضى شغله ونادته الزنار وقالت له امض به الى السوق وبعه بعشرين دينارا كما بعث نظيره بالأمس فعند ذلك أخذه ومضى به الى السوق وباعه بعشرين دينارا وأتى الى العطار ودفع له الثمانين درهما وشكره على فماله معه ودعاه فقال له يا ولدي هل أنت بعث الجارية فقال نور الدين كيف أبيع رويحي من جسدي ثم انه حكى له الحكاية من المبتدا الى المنتهى وأخبره بجميع ما جرى له من أوله الى آخره ففرح الشيخ العطار بذلك الفرح الشديد الذي ماعله من مزيد وقال له والله يا ولدي انك قد فرحتني وان شاء الله تعالى أنت بخير دائما فاني أود لك أن تدير لحييتي لو ذلك وبقاء صحتي معه ثم ان نور الدين فارق الشيخ العطار وراح من وقته وساعته الى السوق واشترى اللحم والفواكه

والشراب وجميع ما يحتاج اليه على جرى العادة واتي به الى تلك الجارية ولم يزل نور الدين هو والجارية في أكل وشرب واهب وانشرح وود ومندمة مدة سنة وهي تعلم في كل ليلة زنا راقبيته بهشرين دينارا ينفق منهما يحتاج اليه والباقي يعطيه لها من حفظه عندها الى وقت الحاجة اليه وبعد السنة قالت له يا سيدي نور الدين اذابت الزنا في غدا نخذلي من ثمنه حراما لئلا تأسف الوانة قد خطر ببالى ان اصنع لك منديلا نجعله على كتفك ما فرحت به له اولاد التجار ولا اولاد الملوك الكبار فعند ذلك خرج نور الدين الى السوق وقوباع الزنا واشترى الحبر والبراملون كما ذكر لك الجارية وجاء به اليها فقعدت مريم الزنارية تصنع في المنديل حمة كاملة لانها كلما فرغت من زنا راقبيته لعمل في المنديل شيئا الى ان خلصته ثم ناوأته لنور الدين فجعله على كتفه وصار يعشي به في السوق فصار التجار والناس واكابر البلد يقفون عنده صفوا ليتفرجوا على حسنه وعلى ذلك المنديل وحسن صنعه فاتفق ان نور الدين كان نائما ذات ليلة من

الليالي فانتبه من منامه فوجد جاريته تبكي بكاء شديدا وتشد هذه الايات

ذنا فراق الحبيب واقتربا * واحر بالافراق واحربا * تفتت مهجتي فوالسقى على ليال مضت لنا طربا * لا بد ان ينظر لنا الحسود * بين سوء ويبلغ الاربا

فما علينا اضر من حسد * ومن عيون الوشاة والرقبا

فقال لها نور الدين يا سيدي مريم مالك تبكين فقالت له ابكي من ألم الفراق فقد أحس قاي به فقال لها يا سيدي الملاح ومن الذي يفرق بيننا وانا الآن أحب الخلق اليك وأعشقهم لك فقالت له ان عندي أضفافا عندك واسكن حسن النظم بالليالي يوقع الناس في الاسف وقد أحسن الشاعر حديث قال

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتي به القدر

وسالمت لك الليالي فاغتررت بها * وعند صفو الليالي يحدث الكدر

وفي السماء فجب ولم لا عداها * وايس يكسف الاله الشمس والقمر

وكم على الارض من خضر او يابسة * وايس يرجم الامالة ثم

أما ترى البحر يلو فوقه جيف * وتستقر بقصى قاعه الدرر

ثم قالت يا سيدي نور الدين اذا كنت تفرص على عدم الفراق فخذ حذر من رجول افترجى أعور واليهين اليمنى أعرج الرجل الشمال وهو شيخ أغبر لوجه مكثم اللعبة لانه هو الذي يكون سببا لفراقنا وقد رأيت به اتي في تلك المدينة واطن انه ماجاء الا في طلبي فقال لها نور الدين يا سيدي الملاح ان وقع به صرى عليه قتله ومثلت به فقالت له مريم

يا - مدي لا تقطعه ولا تنكاه ولا تباعه ولا تشاره ولا تعمله ولا تجالس ولا تعاش ولا
 تتحدث معه بكلام قط وادع الله أن يكفيننا شر موكره فلما أصبح الصباح أخذ نور الدين
 الزنار وذهب به إلى السوق وجلس على مصطبة وكان يقعد هو وأولاد التجار
 فآخذته سنة من النوم فنام على مصطبة الدكان فينما هو قائم وإذا بذلك الأفرنجي مر
 على ذلك السوق في تلك الساعة ومعه سبعة من الأفرنج ف رأى نور الدين قائما على
 مصطبة الدكان ووجهه ملفوف بذلك المنديل وطرفه في يده فقدم الأفرنجي عنده
 وأخذ من طرف المنديل وقلبه في يده واستمر يقلب فيه ساعة فاستحسن به نور الدين فأتى
 من النوم فرأى الأفرنجي الذي وصفته الجارية بعينه جالسا عند رأسه فصرخ عليه
 نور الدين صرخة عظيمة أربعته فقال الأفرنجي لاي شيء تصرخ عامنا هل نحن أخذنا
 منك شيئا فقال له نور الدين والله ياملعون لو كنت أخذت مني شيئا كنت ذهبت بك
 إلى الوالي فقال له الأفرنجي يامسلم بحق دينك وما تعتقده أن تخبرني من أين لك هذا
 المنديل فقال له نور الدين هو ثقل والذي علمته لي بيدهما فقال له الأفرنجي أتبعه
 وتأخذ ثمنه مني فقال له نور الدين والله ياملعون لا أتبعه لك ولا تغيرك فانما علمته الأعلى
 اسمي ولم تعد حل غيره فقال بهي وأنا أعطيك ثمنه في هذه الساعة خسمائة دينار ودع
 التي علمته تعمل لك غيره أحسن منه فقال له نور الدين أنا ما أتبعه أبدا لأنه لا تقدر له في
 هذه المدينة فقال له الأفرنجي ياسيدي وهل لا أتبعه تسعمائة دينار من الذهب الخالص
 ولم يزل يزيده مائة بعد مائة إلى أن أوصاه إلى تسعمائة دينار فقال يفتح الله على
 بغير بيعه أنا ما أتبعه ولا بالفي دينار ولا بالكثير أبدا ولم يزل ذلك الأفرنجي يرغب نور الدين
 بالمال في ذلك المنديل إلى أن وصله إلى ألف دينار فقال له جماعة من التجار الحاضرين
 نحن بفنناك هذا المنديل فادفع ثمنه فقال له نور الدين أنا ما أتبعه والله فقال له تاجر من
 التجار علم ياولدي أن هذا المنديل قيمته مائة دينار أن كثرت و وجد له راغب وأن
 هذا الأفرنجي دفع فيه ألف دينار جملة فربحك تسعمائة دينار فأرى يحب تربدأ كبير من
 هذا الزمان فإلى أي عندي أن أتبع هذا المنديل وتأخذ الألف دينار وتقول للتي علمته
 تعمل لك غيره أو أحسن منه وأزجج ألب الألف دينار من هذا الأفرنجي الملعون عذوق
 الدين فاستحي نور الدين من التجار وباع للأفرنجي المنديل بألف دينار ودفع له الثمن
 في الحضرة وأراد نور الدين أن ينصرف فمضى إلى جاريته مريم ليشرحها بما كان من
 أمر الأفرنجي فقال الأفرنجي بالجماعة التجار حجزوا نور الدين فانكم وإياه مضى في
 هذه الليلة فان عندي بقية خمر رومي من معتي الخمر وسرفاسه منا وفاكهة ونقلا ومشموما

قائم تواتر وتوفي في هذه الليلة ولا يتأخر أحد منكم فقال التجار ياسيدي نور الدين
 نشنسى ان تكون معناني مثل هذه الليلة انتخذت معك فن فضلك واحسانك ان
 تكون معناني ففحن واياك ضيوف عند هذا الافرنجي لان رجل كريم ثم انهم حلقوا
 عليه بالطلاق ومنعوه بالغصب عن الرواح الى بيته ثم قاموا من وقتهم وساعتهم وقفوا
 الدكاكين واخذوا معهم نور الدين وذهبوا مع الافرنجي الى قاعة مطيبة بلبواين
 فاجلسهم فيها ووضع بين ايديهم سفر غريبة الصنع بديعة العمل فيها صورة كاسر
 ومكسور وعاشق وممشوق وسائل ومسؤل ثم وضع الافرنجي على تلك السفرة الاواني
 النفيسة من الصيني والبلور وكلها مملوءة بنفائس النخل والفاكهة والمشموم ثم قدم لهم
 لافرنجي بديعة مملوءة من الجزر الرومي المعتق وأمر بدمج خروفهمين ثم ان الافرنجي
 أوقد النار وصار يشوي من ذلك اللحم ويطعم التجار ويسقيهم من ذلك الجزر وينعمهم
 على نور الدين ان ينزلوا عليه بالشراب فلم ينزلوا يسقونه حتى سكر وغاب عن وجوده
 فلما رآه الافرنجي مستغرقا في السكرك قال آستنا ياسيدي نور الدين في هذه الليلة
 فخرجنا بك ثم رحبنا بك وصار الافرنجي يؤانسك بالكلام ثم تقرب منه وجلس بجانبه
 وسارقه في الحديث ساعة زمانية ثم قال له ياسيدي نور الدين هل تبغني جاريةك التي
 اشتريتها بحضرة هؤلاء التجار بالف دينار من مدة سنة وأنا أعطيك في ثمنها الآن خمسة
 آلاف دينار بزيادة أربعة آلاف فاني نور الدين ولم ينزل ذلك الافرنجي بطعمه ويسقيه
 ويرغبه في المال حتى أوصل ثمن الجارية الى العشرة آلاف دينار فقال نور الدين وهو
 في سكره قد دام التجار بعتك اياها هات العشرة آلاف دينار ففرح الافرنجي بذلك
 القول فرحاشد بدا وأشهد عليه التجار باقوا في كل وشرب وانشرح الى أن أصبح
 الصباح فصاح الافرنجي على غلمانه وقال لهم اثبتوني بالمال فأحضر والمال فعد لنور
 الدين العشرة آلاف دينار نقدا وقال له ياسيدي نور الدين تسلم هذا المال ثمن جاريةك
 التي بدتها الى الليلة بحضرة هؤلاء التجار المسلمين فقال نور الدين يا ملعون أنا ما بعتك شيئا
 وأنت تكذب علي وليس عندي جوار فقال له الافرنجي قد بعثت جاريةك وهؤلاء
 التجار يشهدون عليك بالبيع فقال التجار كلهم نعم يا نور الدين أنت بعته جاريةك
 قدامنا ونحن نشهد عليك انك بعته اياها بعشرة آلاف دينار فم فاقبض الثمن وسلمه
 الجارية والله بموضع خير امنها تكرر يا نور الدين انك اشتريت جارية بالف دينار
 ولك سنة تتفتح بحسنها وجمالها وتلد في كل يوم وليلة بمئذمتها ووصالها وبعد ذلك
 برحمت من هذه الجارية تسعة آلاف دينار فوق ثمنها الاصل في كل يوم تعمل لك

زفارا تبيعه ومشرين ديناراً وبعد ذلك كله تنكر الببيع وتستقل الريح أى ربح أكثر من
 هذا الريح رأى مكسب أكثر من هذا المكسب فان كنت تحبها فها أنت قد شيعت منها
 في هذه المدة فاقبض الثمن واشتر غيرها أحسن منها أو تزوجك بنتاً من بناتنا بهراً أقل
 من نصف هذا الثمن وتكون البنت أجل منها وبصير معك باقى المال رأس مال فى
 يدك ولم ينزل التجارىت كالمون مع نور الدين باللاطفه والمخادعة الى أن قبض العشرة
 آلاف دينار ثمن الجارية وأحضرا لافرنجى من وقته وساعته القاضى والشهود
 فمكتبوا له حجة شمرأ الجارية اتى اسمها مريم الزنارية من نور الدين هذا ما كان من أمر
 نور الدين (وأما) ما كان من أمر مريم الزنارية فانهما قدمت تنظر سيدة هانور الدين
 جميع ذلك اليوم الى المغرب ومن المغرب الى العشاء ومن العشاء الى نصف الليل فلم
 يجدوا لها سيدة المذكور فجزعت وصارت تبكى بكاء شديداً فسمعها الشيخ العطار وهى
 تبكى فأسر لالبهاز وجته فدخلت عليها فقرأتها تبكى فقالت لها ياسدى مالك تبكين
 فقالت لها يا أمى انى قدمت أنتظر محبى وسيدى نور الدين فاجابها الى هذا الوقت وأما
 خاتمة أن يكون أحد عمل عليه حيلة من شأنى لأجل أن يبيعنى فدخلت عليه الحيلة
 وباعنى فقالت لها زوجه العطار ياسدى مريم لو أعطوا سيدك فلك مل هذه القاعة
 ذهباً لم يبعك لما أعرفه من محبته لك ولكنه ياسدى مريم عما يكون جماعة أنوامن
 مدينة مصر من عند والده فعمل لهم عز ومعة فى المحل الذى هم نازلون فيه واستهى أن
 يأتى بهم الى هذا المحل لانه لا يسعهم أولان مرتبهم أقل من أن يجرى بهم الى البيت أو
 أحب أن يخفى أمرك عنهم فبات عندهم الى الصباح ويأتى أن شاء الله تعالى اليك فى
 غد بخبر فلا تخفى نفسك هما ولا تخافى هذا سبب غيابه عنك فى هذه الليلة وهما أنا ابنت
 عندك وأسألك الى أن يأتى اليك سيدك ثم ان زوجه العطار صارت تلاطف مريم
 وتسايمها بالكلام الى أن ذهب الليل كله فلما أصبح الصباح نظرت مريم الى سيدة هانور
 الدين وهى داخل من الزقاق وذلك الافرنجى سائر وراءه وجماعة التجار حوله فلما
 رأتهم مريم ارتعدت فرائصها واصفر لونها وصارت ترتعد كأنها سفينه فى وسط بحر فلما
 رأتها امرأة العطار قالت لها ياسدى مريم ما لى أراك قد تغير حالك واصفرو وجهك
 فقالت لها الجارية ياسدى والله ان قلبى قد أحس بالفراق وبعد التلاق ثم ان
 الجارية تأوت بصداع الزفات وأنشدت هذه الايات

لا تتركنى الى الفراق • فانه مر المسداق • الشمس عند غروبها
 تصفر من الم الفراق • وكذلك عند شروقها • تبيض من فرح التلاق

ثم ان مريم الزنارية بكبت البكاء الشديد الذي ماعليه مزيد وتيقنت الفراق وقالت
 لوجه العطار يا سيدى اما قلت لك ان سيدى نور الدين قد علمت عليه حيلة من اجل
 يبي فما أشك في أنه باعنى في هذه الليلة لهذا الا فرنجي وقد كنت حذرتك منه ولكن
 لا ينفع حذر من قدر فقد بان لك صدق قولى فيمنه ما هى وزوجة العطار فى الكلام واذا
 بسيد هانور الدين قد دخل عليها فى تلك الساعة فنظرت اليه الجارية فرائته قد تغير
 لونه وتشوش ذهنه ولاح على وجهه أثر الحزن والندم فقالت له يا سيدى نور الدين
 جعلت فداك ما بالاك وما الذى تغير منه حالك كأنك بعثنى فبكى بكاء شديدا ثم
 وتنفس الصعداء وأشهد هذه الايات

هى المقادير فما يقضى الحذر * ان كنت أخطأت فما أخطأ القدر
 اذا أراد الله أمرا بأمرئى * وكان ذاعقل ومع وبصر * أصم أذنيه وأعمى عينه
 ووسل منه عقله سلا الشعر * حتى اذا أنفذ فيه حكمه * رد اليه عقله لم يغير
 لا تقل فيما جرى كيف جرى * كل شئ بقضاء وقدر

ثم ان نور الدين اعتذر الى الجارية وقال لها والله يا سيدى مريم انه قد جرى القلم عاقد
 الله وحكم والناس قد عملوا على حيلة من اجل بيعك فدخلت على الحيلة فبعتك وقد
 فرطت فيك أعظم تغريط ولكن عسى من حكم بالفراق أن عين بالة لاق فقالت له
 قد حذرتك من هذا وكان فى وهمى ثم ضمته الى صدرها وقبلته بين عينيه وأنشبت
 هذه الايات

وحق هو اكم ماسلوت ودا دم * ولوتلف روحى هوى وتشوقا
 أنوح وأبكى كل يوم وابلة * كمانح قبرى على شجر النقا
 تنقص عيشى بعدكم بأحبى * متى غبت عنى فالى ملنقى
 فيمنه ما على هذه الحالة يتناشدان الاشعار ويسكران الدموع الغزار واذا بالافرنجى
 قد طلع عليهم ما تقدم ليقبل أيدى السيدة مريم فاطمته بكفهاعلى خده وقالت له اعد
 بامدود فمازات خاتنى حتى خدعت سيدى ولكن يا عدو الله ان شاء الله تعالى
 لا يكون الا خيرا وارمى كبدك فى فمرك فضحك الافرنجى من قولها وتعب من فعلها
 واعتذرا اليها وقال له يا سيدى مريم أى شئ ذنبى أنا وانما سيدك نور الدين هذا هو الذى
 باعك برضائه ومطاب خاطره وانه وحق المسيح لو كان يحببك ما فرط فيك ولولاه
 فرغ غرضه منك ما باعك وقد قال بعض الشعراء

من ملنى فلم يرض عنى عامدا * ان عدت أذكره فاستبراشد
 ما ضاقت الدنيا على بأسرها * حتى ترائى راغبانى زاهدا

وقد كانت هذه الجارية بنت ملك أفرنجية وهي مدينة واس - فلما جهات كثيرة الصنائع
والغرائب والنباتات تشبه مدينة القسطنطينية وقد كان لخروج تلك الجارية من مدينة
أبيها حديث غريب عجيب نسوقه على الترتيب حتى بطرب منه السامع ويطيب
وذلك أنها تربت عند أبيها وأنها في الذر والدلال والانس والكمال وتعلمت الفصاحة
والكتابة والحساب والفروسية والشجاعة وغالب مهمات الصنائع مثل الزرقة
والنماطة وصناعة الزناير والعقادة ورعى الذهب على الفضة وغير ذلك واتقنت صنائع
الرجال والنساء حتى صارت ماهرة في كل صناعة فصارت فريدة في عصرها ووحيدة
في دهرها وقد أعطاها الله عز وجل من الحسن والجمال والظرف الذي لم يوجد مثله
في نساء ولا رجال فخطبها ملوك الجزائر من أبيها وكل من خطبها منه يأبى أن يزوجهالة
لأنه كان يحبها حباً شديداً ولا يقدر على فراقها ساعة واحدة ولم يكن عنده بنت غيرها
وكان معه من الأولاد الذكور كثير وإنكته كان مشغولاً فاجبها أكثر منهم فاتفق أنها مرضت
في بعض السنين مرضاً شديداً حتى أشرفت على الهلاك فنذرت على نفسها أنها إذا
عوفيت من هذا المرض تزور الديار الفلانية الذي في الجزيرة الفلانية وكان ذلك الديار
مظنماً عندهم وينذرون له النذور ويتبركون به فلما عوفيت مريم من مرضها أرادت
أن توفي بنذرها الذي نذرتة على نفسها لذلك الديار فزارسها ملك أفرنجية إلى ذلك الديار في
مركب صغيرة وأرسل معها بعضاً من بنات أكابر المدينة ومن البطارقة لأجل خدمتها
فلما قربت من الديار صادفها مركب من مراكب المسلمين المجاهدين في سبيل الله
فأخذوا جميع ما في تلك المركب من البطارقة والبنات والأموال والتحف فباعوا
ما أخذوه في مدينة القبر وأن فوقعت مريم في يد رجل أعجمي تاجر من التجار وقد كان
ذلك الأعجمي عينا لا يأتى النساء ولم تتكشف له عورته على أمر أخطأها للخدمة ثم إن
ذلك الأعجمي مرض مرضاً شديداً حتى أشرفت على الهلاك وطال عليه المرض مدة
شهور فخدمته مريم وبالغت في خدمته إلى أن عاها الله من مرضه فندكر ذلك الأعجمي
منها الشفقة والحبية عليه والقيام بخدمته فأراد أن يكافئها على ما فعلته معه من الجليل
فقال لها تمني على يا مريم فقالت يا سيدي تمنيت عليك أن لا تبغى إلا من أريد
وأحبه فقال لها نعم لك على ذلك والله يا مريم ما أبيعك إلا من تريد وقد جعلت يديك
بيدك ففرحت فرحاً شديداً وكان الأعجمي قد عرض عليه الإسلام فأسلمت وعلمها
العبادات فتعلمت من ذلك الأعجمي في تلك المدة أمر دينها وما يجب عليها وحفظها

القرآن وما يتيسر من المعلوم الفقهية والاحاديث النبوية فلما دخل بها مدينة اسكندرية
 باعها لمن ارادته وجعل بيعها سديها كما ذكرنا فاختدوها على نور الدين كما اخبرنا هذا
 ما كان من سبب خروجها من بلادها (وأما) ما كان من أمر أبيها ملك افريقية فانه لما
 بلغه أمر ابنته ومن معها قامت عليه القيامة وأرسل خلفها المراكب وصحبهم البطارقة
 والفرسان والرجال والشجعان فلم يقدروا الهاء على خبره بعد التفتيش في جزائر المسلمين
 ورجعوا الى أبيها بالويل والثبور وعظائم الامور فحزن عليها أبوها حزنا شديدا فإرسل
 خلفها ذلك الأعور اليمن الاعرج الشمال لانه كان أعظم وزرائه وكان جبارا عنيدا
 فاحمل وخداع وأمره ان يفتش عليهم في جميع بلاد المسلمين ويشتريها ولو بعل عرك
 ذهباً ففتش عليهم اذ كان الملعون في جزائر البحار وغالب المدن فلم يقدروا الهاء على خبره الى أن
 وصل الى مدينة اسكندرية وسأل عنها فوقع على خبرها عند نور الدين على المصري
 يخبره له معه ما جرى وعمل عليه الحيلة حتى اشتراها منه كما ذكرنا بعد الاستدلال عليها
 بالتمثيل الذي لا يحسن صنعة غيرها وكان قد وصى التجار واتفق معهم على خلاصها
 بالحيلة فلما صارت عنده مكثت في بكاء وويل وحزن طويل فقال لها يا سيدة مريم
 خلى عليك هذا الحزن والبكاء وقومي معي الى مدينة أبيك ومحل عملك وتزول عنك
 ووطنك ان تكوني بين خدمك وعلمائك وحشمك واتركي هذا الذل وهذه الغربة
 ويكفي ما قد حصل لي من التعب والسفر من أجلك وصرف الاموال فان لي في السفر
 والتعب وصرف الاموال نحو سنة ونصف وقد أمرني والدك أن أشتربك ولو بعمله
 مركب ذهباً ثم ان ذلك الوزير صار يقبل قدميهما ويخضع لهما ولم يزل يكرر تقبيل يديها
 وقدميهما وهي تزداد في الغضب عليه وهو مع ذلك منقاد اليها ويفعل ذلك كله أديباً معها
 واحتراماً لسانها وقد قالت له يا ملعون ان الله سبحانه وتعالى لا يبلغك ما في مرادك ثم
 قدم اليها العلمان في تلك الساعة بغلة تسرج مزركش وراكبهما عليها ورفعوا فوق
 رأسها سحابة من حرير بعمدة من ذهب وفضة وصارا لافرنج يشون حولها حتى طلعا
 بها من باب البحر وأتزلوها في قارب صغير وصاروا يقدفون بها الى أن أوصلوا الى
 المركب الكبيرة وأتزلوها فيها فعد ذلك نفض الوزير الأعور وقال لبحرية المراكب ارفعوا
 المصري فرفعوه من وقته ونشروا القلوع والاعلام وصافرت بهم تلك المركب هذا كله
 ومريم تنظر الى ناحية اسكندرية حتى غابت عن عينها فصارت تبكي في سرها بكاء
 شديداً وقد سكبت انبورات وأشدت هذه الايام

يا منزل الاجباب هل لك عودة يا البنا وما علمسى بما الله صانع

فسارت بنا سفن الفراق وأسرعت * وطرق قريح قد عنته المدامع
 لفرقة نخل كان غاية مقصدي * بهشتي سقمي ونعمي المواجه
 ألا يا الهي كن عليه حليقي * فعندك حقا لاتضيع الودائع
 ولم تزل مريم كلما تذكرة تبكي وتنوح فاقبل عليها البطارقة بلاطف ونهاق * لم تقبل
 منهم كلاما بل شغلها داعي الوجد والغرام وزاد بها الحبيب والهيام فاشتدت بها
 الحسرات وأنشدت هذه الايات

لسان الهوى في مهبطي لك ناطق * بخبر عني أتى لك عاشق
 ولي كبدر الهوى قد أذابها * وقلبي جريح من فراقك خافق
 وكما أكرم الحب الذي قد أذابني * فجف في قريح والدموع سوابق
 ولم تزل مريم على هذه الحالة لا يقرها اقرار ولا يطاوعها اضطبار مدة سفرها هذا ما كان
 من أمرها هي والوزير الأعور (وأما) ما كان من أمر نور الدين على المصري فانه بعد نزول
 مريم المركب وسفرها ضاقت عليه الدنيا وصار لا يقر له قرار ولا يحمد له عن فراقها
 اضطبار فتوجه الى القاعة التي كان مقعها بها هو ومريم فراها في وجهه سوداء مظلمة
 ورأى العدة التي كانت تشغل عليها الزناير وثيابها التي كانت على جسدها فاضمها الى
 صدره وبكى وأن افراق حبيبتيه واشتكى وفاضت من حنقه المبرات وأنشد هذه
 الايات نرى هل يعود الشمل بعد تشقي * وبعد توالي حسرتي وتلفقي
 فبهات ما قد كان ليس براجع * فبها هل ترى أحظي بوصل حبيبي
 وبها هل ترى قد يجمع الله شملنا * وتذكر أحبابي عهدهم وودني
 ويحفظ ودي من يجهلي أضغته * ويرعى عهدوني ثم سالف حبيبي
 فبأنا الامت بعدهم * وهل ترضى الاحباب يوما مني
 فبأأسف ان كان يجدي تأسف * لقد ذبت وجدام من تراب حسرتي
 وضاع زمان كان فيه تواملي * فبها هل ترى دهرى يهودني
 فبأقاب زدودا وباعين أهملني * دموعا ولا تبقى الدموع بمقاتي
 وبأبعد أحبابي وقد تصبري * لقد قل أنصاري وزادت بليتي
 سألت اله العالمين يجودلي * بعد ودحبيي والوصال كعادتي
 ثم ان نور الدين بكى البكاء الشديد الذي ما عليه من مزيد ونظر الى زوايا القاعة وأنشد
 هذين البيتين أرى آثارهم قاموت شوقا * وأسكب في مواطنهم دموعي
 وأسأل من قضى بالبعد عنهم * بمن علي يوما بالرجوع

ثم ان نور الدين نهض من وقته وساعته وقفل باب الدار وخرج يجرى الى البهروصار
يتأمل في موضع المركب التي سافرت بمریم فبكى وصعد الزفات وأنشد هذه الايات
سلام عليكم ليس لي عنكم غنا * وانى على الخالين في القرب والبعد
أحن اليكم كل وقت وساعة * وأشتاكم شوق العطاش على الورد
وعندكم مهي ولي وناظري * ونذكركم عندى الذم والشهد
فما أسنى لما استقلت ركابكم * وجدت بكم تلك السفينة عن قصد
ثم ان نور الدين ناح وبكى وأن وحن واشتكى ونادى يا مريم يا مريم هل كانت رؤيتي
لك في المنام أم اضافات أحلام ولما زاده الحزن والحسرات أنشد هذه الايات
فهل بعد هذا البعد عني تراكم * وأسمع من قرب الديار نذاكم
ونجمنا الدار التي أنست بنا * وأعطى منى قلبي وأنتم منا كم
حذو العظامي أين سرتم مخفة * وأين حلتم فادفوني حـداكم
فلو كان لي قلبان عشت بواحد * وأترك قلبا مفرما في هواكم
ولو قيل لي ماذا على الله تشنهي * لقلست رضا الرحمن ثم رضاكم
فبينما نور الدين على هذه الحالة يبكي ويقول يا مريم واذا بشيخ قد طلع من مركب
وأقبل عليه فرآه يبكي وينوح وينشد هذين البيتين
يا مريم الحسن عودي ان لي مقلا * تهائب المزن تجرى من سواك بها
واستخبري عزلي دون الانام ترى * أحفان عيني غرقى في كواكبا
فقال له الشيخ بأولدى كأنك تبكى على الجارية التي سافرت البارحة مع الافرنجي فلما
سمع نور الدين كلام الشيخ خرمغشا عليه ساعة زمانية ثم أفاق وبكى البكاء الشديد الذي
ما عليه مزيد وأنشد هذه الايات

فهل بعد هذا البعد برجي وصالها * ولذة أنسى قد بدعود كمالها
فان بقلي لوعة وصـبابة * ويزعجني قيل الوشاة وقالها
أقسم نهاري باهتا مقبرا * وفي الليل أرحوان يزور خيالها
فوالله لأسلو عن العشق ساعة * وكيف ونفسي في الوشاة مـلالها
منعمة الاطراف مهنومة الحشا * لها مقلة في القاب منى نبالها
يحاكى قضيب البان في الروض قدراها * ويخجل ضوء الشمس حسناجالها
ولو لا خاف الله جل جلاله * اقلت لذات الحسن جل جلالها
فلما نظر ذلك الشيخ الى على نور الدين ورأى جماله وقده واعته له وفصاحة لسانه وإطعم

اقتنائه حزن قلبه عليه ورق لحاله وكان ذلك الشيخ رئيس مركب مسافر قال مدينة تلك
الجارية وفيها زبادة عن مائة تاجر من المسلمين فقال له اصبر يا ولدي ولا ترى الاخير ان
شاء الله تعالى اوصلك اليها فقال له نور الدين متى السفر يا سيدي فقال الرئيس قد بقي
لنا ثلاثة ايام وسافر في خير وسلامة فلما سمع نور الدين كلام الرئيس فرح فرحاً شديداً
وشكر فضله واحسانه وبعد ذلك تذكر ايام الوصال واجتماع الشمل بجاريته ذات
الحسن والجمال فبكى بكاء شديداً وانشد هذه الايات

فهل يجمع الرحمن لي ولذكم شهلا * وهل ابلغ المقصود يا سادتي ام لا

ويسمح صرف الدهر من ذكم بزورة * واطبق احفاني على ذاتك بحضـ لا

ولو كان وصلكم ببيع اشتريته * وحى وانكن ارى وصلكم اغلى

ثم ان نور الدين طلع من وقته وساعته وتوجه الى السوق واخذ منه جميع ما يحتاج اليه
من الزاد وادوات السفر واقبل على ذلك الرئيس فلما رآه قال له يا ولدي ما هذا الذي
معلك قال زوادتي وما استاج اليه في السفر فضحك الرئيس من كلامه وقال له يا ولدي
هل انت رايح تتفرج على عمود السوارى ان سنك وبين مقصدك مسيرة شهرين اذا
طاب الرجح وصفت الاوقات ثم ان ذلك الشيخ اخذ من نور الدين شيأ من الدراهم وطلع
الى السوق واشترى له جميع ما يحتاج اليه في السفر على قدر كفايته وملا له بئنه ماء
حلوم ثم اقام نور الدين في المركب ثلاثة ايام الى ان تجهز التجار وقضوا مصالحهم ونزلوا في
المركب ثم حل الرئيس قلعها واسار وامدة احدى وخمسين يوماً به - ذلك خرج على
القصران قطاع الطريق فنهبوا المركب واسروا جميع من فيه او اتوا بهم الى مدينة
أفرنجية فمعرضوهم على الملك وكان نور الدين من جلتهم فامر الملك بحبسهم وفي وقت
تخلوهم من عند الملك الى الحبس وصل الغراب الذي فيه الملكة مريم الزنارية مع الوزير
الاعور فلما وصل الثراب الى المدينة طلع الوزير الى الملك وبشره بوصول ابنته مريم الزنارية
سالمة قد قوا البشار وزيرها المدينة باحسن زينة وركب الملك في جميع عسكره وارباب
دولته وتوجهوا الى البحر ليقابلوها فلما وصلت المركب طلعت ابنته مريم فماتتها وسلم عليها
وقدم لها جوادا فركبته فلما وصلت الى القصر قابلتها امها واعانتها وسلمت عليها
وسألتها عن حالها وهل هي بكر مثل ما كانت عندهم سابقا وصارت امرأة شيا فقالت
لها مريم يا امي بعد ان يبيع الانسان في بلاد المسلمين من تاجر الى تاجر وبصير
محكوما عليه كيف تبقي بنت بكران التاجر الذي اشتراني هددني بالضرب واكرهني
فزال بكاري وباعني لا آخر وأخر باعني لا آخر فلما سمعت امها هذا الكلام

صار الضياء في وجهها كالظلام ثم أعادت على أبيها هذا الكلام فصرع ذلك
عليه وصكب رأسه عليه وعرض حاله على أرباب دولته وطارقته فقالوا له
أيها الملك انها تهست من المسلمين وما يطهرها الا ضرب مائة رقبة من المسلمين فعند
ذلك أمر الملك بأحضار الاسارى الذين في الحبس فأحضروهم جميعا بين يديه ومن جعلتهم
قورالدين فأمر الملك بضرب رقابهم ثم قال من ضرب رقبة رئيس المركب ثم ضرب رقاب
التجار واحدا بعد واحد حتى لم يبق الا نورالدين فشرطوا ذيله وعصموا عنقه وقدموه
الى نفع الدم وأرادوا أن يضربوا رقبة واذا بانراة عجزوا فقبلت على الملك في تلك الساعة
وقالت له يا مولاي أنت كنت تذرنا بكل كنيسة خمسة أسارى من المسلمين ان رد الله
منك مريم لأجل أن ساعدتنا في خدمتها والآن قد وصلت اليك فبذلك السادة مريم
تخاف بنذكرك الذي تذرته فقال لها الملك يا أمي وحق المسيح والذين الصبر لم يبق عندي
من الاسارى غير هذا الاسير الذي يريدون قتله فخذيه معك يساعذك في خدمة
الكنيسة الى أن يأتي النسا أسارى من المسلمين فارسل اليك أربعة آخر ولو كنت سيخت
تقبل أن يضربوا رقاب هؤلاء الاسارى لأعطيتك كل ما تريد ففكرت الجهور صنيع
الملك ودعت له بدوام العز والبقاء والتم ثم تقدمات الجهور زمن وقته واسأحتهم الى نور
الدين وأخرجته من نفع الدم ونظرت اليه فرأته شابا لطيفا طريفا فارقى البشرية ووجهه
كانه الله إذا زاد في ليله أربعة عشر فأخذته ومضت به الى الكنيسة وقالت له يا ولدي
الكلع ثيابك التي عليك فانها لا تصلح للخدمة السلطان ثم ان الجهور جاءت لنورالدين
بجيش من صوف أسود ومشر من صوف أسود وسير عريض فالبسته تلك الجبة وذلك
المشر وشدت وسطه بالسير وامرته أن يخدم الكنيسة فخدم الكنيسة مدة سنة يوم
فبينما هو كذلك واذا بذلك الجهور زقد أقبلت عليه وقالت له يا مسلم خذ ثيابك الخمر
والباسم واخذ هذه العشرة دراهم وأخرج في هذه الساعة لتتفرج في هذا اليوم ولا
تقف هنا ساعة واحدة ثلاثا وروح وملك فقال لها نورالدين يا أمي أي شئ الخبر فقالت
له الجهور زاعلم يا ولدي أن بنت الملك السيدة مريم الزانية تريد أن تدخل الكنيسة في
هذه الوقت لأجل أن تزورها وتبكر بها وتقر بها اقربا بناح لاواة السلامة بسبب
خلاصها من المسلمين وتوفى لها النفور التي تذرتهما ان نجاها المسيح ومعها ثيابا بمائة بنت
فأواحدة منهمن الا كاملة في الحسن والجمال ومن جعلتهن بنت الوزير وبنت الامراء
وأرباب الدولة وفي هذه الساعة يحضرن وربما يقع نظرهن عليك في هذه الكنيسة
فبذلك فمئذ ذلك أخذ نورالدين من الجهور العشرة دراهم بعد ان لبس ثيابه وأخرج

إلى السوق وصار يتفرج في شوارع المدينة حتى عرف جهاتها وأبوابها ثم رجع إلى الكنيسة فرأى مريم الزنارية بنت الملائكة قد أقبلت على الكنيسة ومعهما أربع مائة بنت بهذا الكبار كأنهن الأقمار ومن جملتهن بنت الوز برا الا عوز وبنت الامراء وأرباب الدولة وهي تمشي بينهن كأنها القوم فلبس النجوم فلما رآها نور الدين لم يتألم نفسه بل صرخ من صميم قلبه وقال يا مريم فلما سمعت البنات صياح نور الدين وهو ينادي يا مريم هب من عليه وجردن بعض الصفاح مثل الصواعق وأردن قتله في تلك الساعة فالتفتت اليه مريم وتاملته فعرفته غاية المعرفة فقالت للبنات أتركن هذا الشاب فإنه مجنون بلا شك لأن علامة المجنون لا تفتح على وجهه فلما سمع نور الدين من السيدة مريم هذا الكلام كشف رأسه وحلق عينيه وأشاح بيده وعوجر جلبيه وأخرج الزبد من فيه وشده فقالت السيدة مريم أما قلت لكن إن هذا مجنون أحضرته عندي وأبعدته عنه حتى أسمع ما يقول فإني أعرف كلام العرب وأنظر حاله وهل داء جنونه يقبل الدواوة أم لا فعند ذلك جملة البنات وجثن به بين يديها ثم أهدن عنه فقالت له هل جئت إلى هنا من أجل وخاطرت بنفسك وعمات نفسك مجنوناً فقال لها نور الدين يا سيدة مني أما سمعت قول الشاعر قالوا جنت عن تهوى فقلت لهم * ماله العيش إلا عياني هاتوا جنوني وهاؤا من جنت به * فإني وفي بجوني في لؤلؤ موتي فقالت له مريم والله يا نور الدين إنك الجاني على نفسك فإني حذرتك من هذا قبل وقوعه فلم تقبل قول وتبعته تهوى نفسك وأنا ما أخبرتك من باب الكشف ولا من باب الفراسة ولا من باب الرؤيا في المنام وإنما هو من باب المشاهدة والعيان لا في رأيك الوز برا الا عوز فمرفت أنه ما دخل في هذه البلدة إلا في طلبني فقال لها نور الدين يا سيدة مني مريم فعوذ بالله من زلة العاقل ثم ترأيد بنور الدين الحال فأنشده هذا المقال
هو اجناية من زلت به القدم * قد يشمل العبد من ساداته كرم
حسب المسمى بذنب من جنائمه * فرط الندامة إذ لا ينفع الندم
فقلت ما يقتضي التأديب معترفا * فإني ما يفتنه المغر والكرم
ولم يزل نور الدين هو والمملكة مريم الزنارية في عتاب بطول شرجه وكل منهما يحكي لصاحبه ما جرى له ويتناشداً الأشعار ودموعهما تجري على خديهما شبه الأنهار ويتشكبان لبعضهما أشدة الهوى وألم الوحود والوحى إلى أن لم يبق لهما حمة اقوة على الكلام وقدولى النهار وأقبل الظلام وقد كان على السيدة مريم حلة خضراء حزر كشة بالذهب الأحمر مرصعة بالدر والجوهر فزاد بها حسنًا وظرف معانيها

وقد أجاد من قال فيها

تبدت كبد راتم في الحلال الخضر * مفككة الازرار محمولة الشعر
فقلت لها ما الاسم قالت أنا التي * كويت قلوب العاشقين على الجمر
أنا الفضة البيضاء والذهب الذي * يفلح به المأسور من شدة الأسر
فقلت لها إن الصدد وذاذاني * فقلت أنشكروا لي وقلبي من مهر
فقلت لها إن كان قلبك مخررة * فقد أنبع الله الزلال من الصخر

فلما جن الليل أقبلت الملكة مريم على البنات وقالت لهن هل أغلقتن الباب فقلن
لها قد أغلقناه فعند ذلك أخذت السيدة مريم البنات وأتت بهن إلى مكان يقال له
مكان السيدة مريم العذراء أم النور لأن النصارى يزعمون أن روحانياتها وسرها في
ذلك المكان فصارت البنات يتبركن به ويطفن في الكنيسة كلها ولم يفرغن من
زيارتها التفقت السيدة مريم اليهن وقالت لهن اني أريد أن أدخل وحدى في هذه
الكنيسة وأنتم كنتم بها فانه من لي اشتياق اليها بسبب طول غيبي في بلاد المسلمين وأما
لما تني فحيث فردتني من الزيارة ففهن - ميث شنت فقلن لها حبا وكرامة افعل اني
حاضر يدنيه ثم انهن تفرقن عنهما في الكنيسة وغن فعند ذلك استغفلت مريم وقامت
تغتنس على نور الدين فرأته في ناحية جالسا على مقال الجمر وهو في انتظارها فلما أقبلت
عليه قام لها على قدميه وقبل يديها فجلست وأجلسته إلى جانبها ثم زعرت ما كان عليها
من الحلى والحال وضمت نور الدين إلى صدرها وجعلته في حضنها لم تزل هي واباء في
تقبيل وعنق ونغمات خاق باق وهما ية ولان ما أقصر ليل التلاق وما أطول يوم
اللفراق وينشدان قول الشاعر

بالله الوصل وبكر الدهر * لانت غيرة الليالي الفسر
بخائتي بالصبر وقت العصر * هل كنت كحلا في عيون الفجر
أوكنت نوما في عيون الرمد

لله الوصال ما أطولها * آخرها مواصل أولها
كحلقة مفرغة ما ن لها * من طرف والحشر أينما قبلها
فأصيب بعد البعث ميت الصد

فهيئما هما في هذه اللذة العظيمة والفرحة العميمة وإذا بغلام من الغلمان النفيسة يضرب
النفاقوس فوق سطح الكنيسة ليقم من عبادتهم الشعائر وهو كما قال الشاعر
وأبته يضرب أنا قوس قلت له * من علم الظبي ضربا بالنواقيس

وقلت لنفسى أى الضرب يؤلىك * ضرب النواقيس أم ضرب النواقيس
فلما سمعت مريم ضرب النواقيس قامت لوقتها وساعتها ولبست ثيابها وحلبها فاشق ذلك
على نور الدين وتكد قلبه الحزين وسكب العبرات وأشد هذه الالبيات
لازلت ألم ورنخ غص * وأعد ذلك مبالنا فى الغص
حتى اذا طمنا ونام رقبينا * وعيوننا مالت نحو الغمص
ضربت نواقيس تشبه أهلها * يؤذن بدعوة صلاة الفرض
قامت على عجل لابس ثيابها * من خوف نجم رقبنا المنقض
وتقول يا - ولى ويا كل المنى * جاء المصباح بوجهه المبيض
اقسمت لو أعطيت لك ولاية * وبقيت سلطانا شديدا القبط
اهدمت أركان الكنائس كلها * وقنلت كل مقسم فى الأرض

ثم ان السيدة مريم ضمت نور الدين الى صدرها وقبلى خده وقالت له يا نور الدين كم يوم
لست فى هذه المدينة فقال سبعة أيام فقالت له هل سرت فى هذه المدينة وعرفت طرقها
وحجار زها وأبوابها التى من ناحية البر والبحر قال نعم قالت وهل تعرف طريق صندوق
القدر الذى فى الكنيسة قال نعم فقالت له حيث كنت تعرف ذلك كله اذا كانت الليلة
القابلة ومضى ثلث الدل الاول فاذهب فى تلك الساعة الى صندوق النذر وخذ منه
ما تريد وتشتري ما فتح باب الكنيسة الذى فيه الخوخة التى توصل الى البحر فانك تجد
سفينة صغيرة فيها عشرة رجال بحرية فتى رآك الرئيس يديه البك فتأوله يدك فانه
يطالعك فى السفينة فاقدعده حتى أحيى البك والخذر ثم الخذر من أن يلحقك النوم فى
تلك الليلة فتندم حيث لا ينفعك الندم ثم ان السيدة مريم ودعت نور الدين وخرجت
من عنده فى ذلك الوقت والحين ونهبت جواربها وساير البنات من نومهن وأخذتهن
وأنتالى باب الكنيسة ودقته ففتحت البهو الباب فلما طلعت منه رأت الخدم
والخشم والبطارقة وقوافلهم مواليها يلهة فركبتها وأرخوا عليها ثاموسية من الحرير
وأخذت البطارقة بزمام البغلة ووراءها البنات واحتاط بهن الجاويش وبأيديهم
السيوف مسلولة وتوجهوا بهم الى أن وصلوا الى قصر إسماعيل اهاذا ما كان من أمرها (وأما)
ما كان من أمر نور الدين فانه لم يزل مختفيا وراء الستارة التى كان مستتر خلفها هو ومريم
الى أن طلعت الشمس ودخل الناس فى الكنيسة وكثروا فيها فاخطأ بالناس وجاء
الى تلك العجوز قيمة الكنيسة فقالت له أين كنت راقد فى هذه الليلة قال فى محل
داخل المدينة كما أمرتني فقالت له الجوز نعم رفعت ولو كنت بت اليه فى الكنيسة

لكنا وقتلوك أقبح قتلة فقال لها نور الدين الحمد لله الذي نجاني من شر هذه الملة ولم يزل
 نور الدين يقضي شغله في السكينة الى أن مضى النهار وأقبل الليل بداحي الاعتكار
 فقام نور الدين وفتح صندوق النذر وأخذ منه ما خف حمله وغلاظته من الجواهر ثم صبر
 الى أن مضى ثلث الليل الاول وقام ومشى الى باب الخوخة التي توصل الى البحر وهو
 يطلب السر من الله ولم يزل عشي الى أن وصل الى الباب وفتحها وخرج من تلك الخوخة
 وذهب الى البحر فوجد السفينة تراسية على شاطئ البحر بجوار الباب ووجد الرئيس
 شيخا كبيرا نظيفا الا ان لحمة طويلة وهو واقف في وسطها على رجله والعشرة رجال
 واقفون قد امه فساله نور الدين يده ثم امرته مريم فأخذته من يده وجذبه من البحر
 فصار في وسط السفينة فعند ذلك صاح الشيخ الرئيس على البحرية وقال لهم اقلعوا
 مرصاة السفينة من البر وعودوا بنا قبل أن يطلع الفارق قال واحد من العشرة البحرية
 جاسيدى الرئيس كيف نعوم والمالك أخبرنا أنه في غد يركب السفينة في هذا البحر ليطلع
 على ماذنه لانه خائف على ابنته مريم من سراقة المسابين فصاح عليهم الرئيس وقال
 ويلكم يا ملاعين هل بلغ من أمركم أنكم تخالفونني وتردون كلامي ثم ان الرئيس سـل
 سيفه من غمده وضرب به ذلك المتكلم على عنقه فخرج السيف يلعب منه فقال له واحد وأى
 ذنب عمل صاحبنا حتى تضرب رقبة قد يده الى السيف وضرب به عنق هذا المتكلم ولم
 يزل ذلك الرئيس يضرب أعناق البحرية واحد بعد واحد حتى قتل العشرة ورامهم على
 شاطئ البحر ثم التفت الى نور الدين وصاح عليه صيحة عظيمة أرعته وقال له انزل الى
 المراسي يخاف نور الدين من ضرب السيف ونهض قائما ووثب في البر وقلع المراسي ثم
 طلع في السفينة أسمع من البرق وصار الرئيس يقول له اقلع كذا وكذا ودور كذا وكذا
 وانظر الفجور ونور الدين يفعل جميع ما يأمر به الرئيس وقلبه خائف مرعوب ثم رفع
 شرع المراكب وسارت بهم في البحر الهجاج المتلاطم بالامواج وقد طاب لهم الما الريح كل
 ذلك ونور الدين ماسك بيده الراجم وهو غريق في بحر الافكار ولم يزل مستغرقا في
 الفكر ولم يعلم بما هو محبأ له في الثوب وكما انظر الى ذلك الرئيس ارتعب قلبه ولم يعلم
 الجهة التي هو متوجه اليها بل صار متفولا في فكر ووسواس الى أن انضج النهار
 وطلعت الشمس فعند ذلك نظر نور الدين الى الرئيس فرأه قد أخذ لحمة الطويلة بيده
 وجذبها فطلعت من موضعها في يده وتأملها نور الدين فوجدها لحمة كانت مملعة
 زوراهم تأمل نور الدين في ذات الرئيس ودقق النظر فيها فاذا هي السيدة مريم معشوقته
 وكانت قد تحيلت بتلك الحيلة حتى قتلت الرئيس وسلمت وجهه بلحيته وأخذت جلده

وجهه وركبته على وجهها فتجذب نور الدين من فعلها وشجعانهم اومن قوة قلبها وقد طار
عقله من الفرح واتسع صدره وانشرح فقال لها امر حبا بك يا ميني وسؤلى وغاية
مطلبي ثم ان نور الدين مزه الشوق والطرب وأيقن ببلوغ الأمل والأرب فردد صوته
يا طيب النعمات وأنشد هذه الايات

قل لقوم هم لعشقي جهلوا * في حبيب ماله وضلوا
هن غرامى بين قومي فاسألوا * قد لا نظمي ورق القزل * في هوى قوم بطلي تزول
ذكرهم عندي يزيل السقم * عن فؤادى ويزيح الالما
زاد شوقى وهيامى عندما * أصبح القلب كئيبا مغرما * وبه فى الناس سار المثل
أنا لا أقبل فبهم لومة * لا ولا أقصد عنهم سلوة
اكن الحب رمانى حسرة * أشعلت منه بقلبي حجرة * حروا فى كبدي يشتعل
من عجب قد أباحوا سقمى * مع مهادى طول ليل مظلم
كيف راموا بالحقا عدى * واستحلوا فى الهوى سفك دمي * وهم فى جورهم قد طغوا
باترى من الذى أوصاك * بالحقا فى عنقى يهاكم
ولعمري والذى أنشاك * نقل العذال قولاً عنكم * كوا والله فيما اتقوا
لا ازاح الله عنى غلا * لا ولا أشفى اقلبي غلا
يوم أشكون هواكم ملا * أنا لا أرضى - واكم بدلا * عذبا قلبي وان شئت مضلوا
لى فؤاد لم يجل عن حبكم * لوبعاني حسرة من صدكم
مضط هذا الرضا من عندكم * ما نشأوا فاعملوا فى عبدكم * هو بالروح لكم لا يجل
قلما فرغ نور الدين من شعره نهجت منه مريم غابة الحب وشكرته على قوله وقالت له
من هذه حالته فيبقى أن يسلك مسالك الرجال ولا يفعل فعل الانذال وقد كانت السيدة
مريم قوية القلب تعرف بأحوال سير المراكب فى البحر المالح وتعرف الاهوية كلها
واختلافها وتعرف طرق البحر فقال لها نور الدين والله يا ميني دنى وأطأت على هذا
الامر لى من شدة الخوف والفرح خصوصا مع نار الوجد والاشتياق والهم القراق
فصهكت من كلامه وقامت من وقم أو ساعن أو أخرجت شيأ من الأكل والشرب
كلا وشربا وتلذذا وطربا وبعد ذلك أخرجت من البواقيت والجواهر وأعطت
المعادن الغالية والذخائر وأنواع الذهب والفضة مما خاف حمله وعلايته من الغنى
خاف به من قصر أبهى وخزائنه وعرضت ذلك على نور الدين ففرح به غاية الفرح كل
ذلك والريح معتدل والمركب ساكنة ولم يزل الأسائر ينحنون أشرفا على مدينة ألكندرية

وشاهد أعلامها القوية فلما وصلوا الى المناء طلع نور الدين من وقته وساعته من تلك
السفينة ووربطها هناك وأخذ معه شيئا من الذخائر التي جاءت بهامريم وقال لها يا سيدتي
أقعدى في السفينة حتى أطلع بك الى اسكندرية مثل ما أحب وأشتمنى فقالت له
ولكن ينبغي أن يكون بسرعة لأن التراخي في الأمور يورث الندامة ففعلت مريم في
السفينة وتوجه نور الدين الى بيت العطار صاحب أبيه استعيرها من زوجته نقابا وازارا
وما يحتاج اليه كعامة فساء اسكندرية ولم يعلم عالم يكن له في حساب من تصرفات
الدمر اني الحب الجهاب هذا ما كان من أمر نور الدين ومريم الزارية (وأما) ما كان
من أمر أبيهم ملك افرنج فانه لما أصبح الصباح تفقد ابنته مريم فلم يجد ما فسال عنها من
جوارها وخدمها فقالوا له يا مولانا انها خرجت بالليل وراحت الى الكنيسة وبعد ذلك
لم يهرف لها خبرا فبينما الملك يتفقد مع الجوارى والخدم في تلك الساعة واذا
بصريختين عظيمتين تحت القصر قد دوى اه ما الملك كان المنبر فقالوا له أيها
الملك وجدنا عشرة رجال مقتولين على ساحل البحر وسفينة الملك قد فقدت وربنا باب
المنوخة الذي في الكنيسة من جهة البحر مفتوحا والاسير الذي كان يخدم الكنيسة قد
فقد فقال الملك ان كانت سفينتي في البحر قد فقدت فبنتي مريم فيم بالاشك ولا ريب ثم
ان الملك دعا رئيس الميناء وقال له وحق المسبح والدين الصبح ان لم تلحق سفينتي في
هذه الساعة بعسكر وتأتيني بمن فيها لاقتلنك أقبح قتله وأمثل بك أشنع مثله ثم صرخ
عليه الملك فخرج من بين يديه وهو يرتعد وطلب الجهور من الكنيسة وقال لها ما كنت
تصغي من الاسير الذي كان عندك في شأن بلاده من اى البلاد هو فقالت له كان يقول
انهم من مدينة اسكندرية فاما سمع الرئيس كلام الجهور رجع من وقته وساعته الى امينا
وصاح على الصرية وقال لهم تجهزوا وحملوا القلوع ففعلوا ما أمرهم به وسافروا ولم يزلوا
مسافرين ليل ونهار حتى اشرفوا على مدينة اسكندرية في الساعة التي طلع فيها نور
الدين من السفينة وترك فيها السيدة مريم وكان من جملة الافرنج الوزير الاعور الاعرج
الذي كان اشتراها من نور الدين فزاول السفينة مربوطة فمر فوافر بطوامركهم بعدا
عنهما واتوا اليها في مركب صغيرة تقوم على ذراعين من الماء وفي تلك المركب مائة مقاتل
ومعهم الوزير الاعور الاعرج لانه كان جبارا عسيدا وشبه طائفا ريدا واصحابا محتملا ولم
يزالوا سائرين الى أن وصلوا الى تلك السفينة فجمعهم واعلمها خلوها جملة واحدة فلم
يجدوا فيها احدا الا السيدة مريم فاخذوها في السفينة التي هي فيها بعد أن طلعوها على
الشاطئ واخذوا ما يحتاجونه ثم عادوا من وقتهم وساعتهم الى مركبهم وقد قزوا بسيفهم

ومطالبهم من غير قتال وتزاع ورجعوا قاصدين بلاد الافرنج وسافروا وقد طاب لهم
الرجوع ولم يزالوا عافرين على حياية الى أن وصلوا الى مدينة افرنجية وطلعوها بالسيده مريم
الى أبيها وهوفي تحت مملكته فلما انظر اليها أبوها قال لها أويلك يا خاتنة كيف تركت دين
الآباء والاجداد وحسن المسيح الذي عليه الاعتماد واتبعت دين الاسلام الذي قام
بالسيف على رغم الصلب والاضطهاد فقالت له مريم أنا مالى ذنب لاني خرجت في
الليل الى الكنيسة لازور السيده مريم وأتبرئت بها فبينما أنا في غفلة وإذا سراق المسلمين
قد هجموا على وسدوا في وشدوا وثاقى وروضه موئى في السفينة وسافروا الى بلادهم
تفادعهم وتكلمت معهم في دينهم الى أن فكوا وثاقى ومأصدت أن رجالك أدركوني
ونخلصوني وأنا وحق المسيح والدين الصحيح قد فرحت به كما كي من أيديهم غاية الفرح
واتسع صدرى لذلك وانشرح حيث خلصت من أسرهم فقال لها أبوها كذبت يا فاجرة
بما عاهرة وحق محكم الانجيل ومثزل التهريم والتحليل لا بد لي من أن اقتلك أقبح قول
وأمثل بك أشنع مثله أما كفالك الذي فعلته في الاول ودخل علينا محالك حتى
رجعت اليه بهتانك واحتمالك ثم ان الملك أمر بقتلها واصلها على باب القصر فدخل
عليه الوزير الأعور في تلك الساعة وكان مغرما بمحبها فقدموا قال له يا مولانا الملك لا تقتلها
وزوجتي بها وأنا حرص عليها غاية الحرص وما أدخل عليها حتى أبى لها قصر من
الحجر الجلود وأعلى بنيانه حتى لا يستطيع أحد من السارقين الصعود عليه وإذا
فرغت من بنيانه ذبحت على بابها أربعين من المسلمين وأجعلهم قربانا للمسيح غنى وعن
فانعم عليه الملك بزواجه وأذن للقسيسين والرهبان والبطاركة أن يكلموا عليها فكلوا
عليها اللوز برالأعور وأذن أن بشرعوا لها في بستان قصره مشد يلقى بها فشرعت العمال
في العمل هذا ما كان من أمر الملك وابنته (وأما) ما كان من أمر نور الدين والرجل
الطارق نور الدين توجه الى العطار استعار من زوجته أزارا ونقابا كنساء اسكندرية
ورجع بهما الى البحر وقصد محل السفينة التي فيها مريم فوجد الجوقفرا والمزار بعبد
فصار قلبه خربا فبكي بدمع متواتر وأنشد قول الشاعر

سرى طيف سعدى طارقا فاستغفرتني * صبروا صبري في الفلاة وقود

فلم انتبهنا للغيبال الذي سرى * أرى الجوقفرا والزار ببيت

فخشي نور الدين على شاطئ البحر يتلفت يمنا وشمالا فرأى ناسا مجتمعين على الشاطئ
وههم يقولون يا مسلمون ما بقي المدينة اسكندرية حرة حتى صار الافرنج يدخلونها
ويحفظون من فيها ويؤدون الى بلادهم على غاية الامان ولا يخرج وراءهم أحد من

المسلمين ولا من العساكر المغازين فقال لهم نور الدين ما الخبر فقالوا له ان مركبا من
مراكب الافرنج فيم اعسا كرقه هجموا في هذه الساعة على المنيا واخذوا سفينة كانت
راسية هنا بين فيها رادوا على حامية الى بلادهم فلما سمع نور الدين كلامهم وقع مغشيا
عليه فلما افاق سألوه عن قصته فاخبرهم بخبره من الاول الى الآخر فلما افهموا خبره
صار كل منهم يشتمه ويسبهه ويقول له لاي شئ فعلت هذا ما تخرجها الا بازرو نقاب وصار
كل واحد من الناس يقول له كلاما مؤثما ومنهم من يقول خلوه في حاله يكفيه ما جرى له
وصار كل واحد يوجه بالكلام ويرميه بسهام الملام حتى وقع مغشيا عليه فبينما الناس
مع نور الدين على تلك الحالة واذا بصاحبه العطار قد اقبل فرأى الناس مجتمعين فغشى
جهمهم ليعرف الخبر فرأى نور الدين راقدًا بينهم وهو مغشى عليه فقدم عند راسه ونجوه
فلما افاق قال له يا ولدي ما هذا الحال الذي انت فيه فقال له يا عم ان جار بني التي ذهبت
منى قد جئت بها من مدينة ابيها في مركب وقاسيت ما قاسيت في الجحى معها فلما وصلت
بها الى هذه المدينة رطبت السفينة في البر وتركت الجارية فيها وذهبت الى منزلتي
واخذت من زوجتي مصالح الجارية لآخر جها بها من السفينة الى المدينة فخاف
الافرنج واخذوا السفينة والجارية فيها ورادوا على حامية حتى وصلوا الى مركبهم فلما
سمع العطار من نور الدين هذا الكلام تأسف على نور الدين اسفا عظيما وخرن عليه خرونا
جسيما وقال له يا ولدي لاي شئ ما اخرجتها من السفينة الى المدينة من غير ازار ونقاب
ولكن في هذا الوقت ما يقع الكلام قم يا ولدي واطلع معي الى المدينة لعل الله يرزقك
يجارية احسن منها فتسلي بها عنك واحمد الله على عدم خسارتك فيها شيابل حصل لك
الرجح فقم واعلم يا ولدي ان الاتصال والانفصال بيد الملك المتعال فقال له نور الدين والله
يا عم اني ما اقدر ان اسلاها ابدأ ولا اترك طلبها ولو سقيت من اجلها كأس الردى فقال
له العطار يا ولدي واي شئ في ضميرك تريد ان تفعله فقال له نويت ان ارجع الى بلادهم
وادخل مدينة افرنجة واخاطب برفسي فاما عليها او امالها فقال له يا ولدي ان في الامثال
السائرة ما كل مرة تلم الجرة وان كانوا فقلوا بك في المرة الاولى شيئا بما يقتلونك هذه
المرة لاسيما وقد عرفوك سابقا فقال نور الدين يا عم دعني اسافر واقتل من اجلها اصبرا
وكان عصادفة القدر مركب راسية في المنيا مجهزة للسفر وركابها قد قضت جميع اشغالها
وفي تلك الساعة قلعوا اوتادها فتنزل فيها نور الدين وسافرت تلك المركب مدة ايام وقد
طلب لركابها الوقت والرجح فبينها هم سائرون واذا بمركب من مراكب الافرنج يجدر اثره
في البحر الجاهج لايرون مركبا الا ويأخذونها خوفا على بنت الملك من سراق المسلمين

واذا اخذوا مراكبهم يولون جميع من فيهم الى ملك افرنجة فيذبحهم ويوفيهم نذره الذي كان نذره من أجل ابنته فرأوا المراكب التي فيها نور الدين فأخذوها وأسروا كل من كان فيها وأتوا بهم الى الملك والد السيد مريم فلما أوقفوهم بين يديه وجدهم مائة رجل من المسلمين فأمر بذبحهم في الوقت والساعة ومن جلتهم نور الدين فذبحهم وهم كلهم ولم يبق منهم الا نور الدين وكان الجلاء آخره شقة عليه اصف منهنه ورشاقة قدده فلما رآه الملك عرفه حتى المرفة فقال له أما أنت نور الدين الذي كنت عندنا في المرة الاولى قبل هذه المرة فقال له ما كنت عندكم وليس اسمي نور الدين وانما اسمي ابراهيم فقال له الملك كذبت بل أنت نور الدين الذي وهبتك للجهنم وزا القمية على الكنيسة لتساعدنا في خدمة الكنيسة فقال له نور الدين يا مولاي أنا اسمي ابراهيم فقال له الملك ان الجهوز قمية الكنيسة اذا حضرت ونظرتك تعرف هل أنت نور الدين أو غيره فبينما هم في الكلام واذا بالوزر بالاعور الذي تزوج مريم قد دخل في تلك الساعة وقبل الارض بين يدي الملك وقال له ايها الملك اعلم ان القصر قد فرغ بانيانه وانت تعرف اني نذرت للمسيح اذا فرغت من بانياته أن اذبح على بابه أربعين من المسلمين وقد أتيتك لأخذ من عندك أربعين مسلما فاذبحهم وأوفيهم نذرا للمسيح ويكونون في ذمتي على سبيل العوض ومتى جاءني أسارى أعطيتك بداهم فقال الملك وحدي المسيح ما بقي عندي غير هذا الاسير وأشار الى نور الدين وقال له خذوه واذبحوه في هذه الساعة حتى أرسلك اليك البقية اذا جاءني أسارى من المسلمين فمئذ ذلك قام الوزر بالاعور وأخذ نور الدين ومضى به الى القصر ليذبحه على عتبة بابه فقال له الدهانون يا حضرة الوزير قد بقي علينا من الدهان شغل يومين فاصبر علينا واخرج هذا الاسير حتى نفرغ من الدهان عسى أن يأتي اليك بقية الأربعين فخرج الجميع دفعة واحدة ووقفي بتدرك في يوم واحد فمئذ ذلك أمر الوزير بجس نور الدين فأخذوه ومقدا جائعا عطشا نائحا يسرع على نفسه وقد نظرا موت بعينه واتفق بالامراء المقدر والقضاء المبرم أنه كان للملك حصانان أخوان شقيقان أحدهما اسمه سابق والاخر لاحق وكانت الملوك الاكسرة بمسرة تمحصل واحد منهم ما وكان أحدهما شهيقا والاخر أدهم كاللؤلؤ الحالك وكانت ملوك الجزائر جميعا يقولون كل من سرق لنا حصانا من هذين الحصانين نهطه جميع ما يطلبه من الذهب الأحمر والدم والجواهر فلم يقدر احد على سرقة واحد من هذين الحصانين فحصل لاحدهما مرض في عينيه فاحضر الملك جميع الباطرة لدوائه فعجز واعنه كلهم فدخل على الملك الوزير الاعور الذي تزوج بنته مريم فرآه وهو ما من قبل ذلك الحصان فاراد ان يزيل

همه فقال ايها الملك اعطني هذا الحصان وأنا اداو به لك فاعطاه له فنقله في الاصطبل الذي فيه نور الدين محبوبس فلما فارق هذا الحصان اخاه صاح صيحة عظيمة وصهل حتى ازعج الناس من الصياح فمرف انه ما حصل منه هذا الصياح الا فرأه لآخيه فذهب وأعلم الملك بذلك فلما تخفق الملك كلامه قال اذا كان ذلك حيناً وان لم يصبر على قراق أخيه فكيف بذوى العقول ثم امر النلمان أن ينقلوا الحصان عنده أخيه بدار الوز يزوج مريم وقال لهم قولوا للوز بران الملك يقول لك ان الحصانين انعام منه عليك لاجل خاطر ابنته مريم فبينما نور الدين نائم في الاصطبل وهو مقيم مكمبل اذ نظر الى الحصانين فوجد على عيني أحدهما غشاوة وكان عنده بعض معرفة بأحوال الخيل وعارسة دوائهم فقال في نفسه هذا والله وقت فرصتي فأقوم وأكذب على الوز بروا قول له اداوى هذا الحصان وأعمل له شيئاً يتلف عينيه فيقتلني وأستريح من هذه الحياة الذميمة ثم ان نور الدين انتظر الوز برالى أن دخل الاصطبل ينظر الى الحصانين فلما دخل قال له نور الدين يا مولاي أى شئ يكون لى عليك اذا ناداوىت لك هذا الحصان وأعمل له شيئاً يطيب عينيه فقال له الوز برو حياء رأسى ان داوية به أعتقك من هذا الذبح وأخذلك ثم نى على فقال يا مولاي مرفك يدي فأمر الوز بر باطلاقة فنهض نور الدين وأخذ زجاجاً بكراً وسحقه وأخذ جيراً بلاطى وخلطه بماء البصل ثم وضع الجميع في عيني الحصان ورطبهما وقال في نفسه الآن تغور عيناه فيقتلني وأستريح من هذه المعيشة الذميمة ثم ان نور الدين نام تلك الليلة بقلب خال من وسواس الهـم وتضرع الى الله تعالى وقال يارب فى علمك ما يفتنى عن السؤال فلما أصبح الصباح وأشرق الشمس على الراوى والبطح جاء الوز برالى الاصطبل وأزال الرباط عن عيني الحصان ونظر اليهما ففرأهما أحسن عيون ملاح بقدرة الملك الفتح فقال له الوز بر يا سلم ما رأيت فى الدنيا مثلك فى حسن معرفتك وحق المسحج والدين الصريح أنك أعجبتنى غاية الإعجاب فانه عجز عن دواء هذا الحصان كل بيطار فى بلادنا حتى يحرقه ذروا الباب ثم تقدم الى نور الدين وحل قيده بيده ثم ألبسه حلة سنية وجعله ناظر على خيله ورتب له مرتبات وجرايات وأسكنه فى طبة على الاصطبل وكان فى القصر الجدي الذى بناه للسيدة مريم شباك مطل على بيت الوز برو على الطبة التى فى نور الدين فبعد نور الدين مدة أيام يأكل ويشرب ويتلذذ ويطلب ويأمر ويمنى على خدمة الخيل وكل من غاب منهم ولم يعلق على الخيل المربوطة على الطواله التى فيها خدمته برميه ويضربه

خبرنا بشدا ويضع في رحله القيد الحديد وفرح الوزير بنور الدين غاية الفرح ولم
يذكر ما يؤول أمره اليه وكان نور الدين ينزل كل يوم الى الحصانين ويصعدهما ويدلهما على
من عزت بهما عند الوزير ومحبة له ما وكان لذلك الوزير بنت بكر في غاية الجمال كانت
غزال شارد أو غصن مائد فاتفق أنهما كانت جالسة ذات يوم من الأيام في الشباك
المطل على بيت الوزير وعلى المكان الذي فيه نور الدين اذ سمعت نور الدين يقف ويسلم
نفسه على المشقات بانشاد هذه الايات

ما عاذلا أصح في ذاته * منعما يزهب بالذاته * لوعضك الدهر باقائه
لقلت من ذوق مرارته * آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بمرارته
لم يكن سلمت اليوم من غدره * ومن تناهيه ومن جوره * فلأنك من حازي أمره
وقال من فرط صباباته * آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بمرارته
كن طائر المشاق في حالهم * ولا تكن عوناً لعدائهم * أباك أن تشد في حميم
بجرحا من مرلوعاته * آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بمرارته
قد كنت من قبلك بين العباد * كمثل من بات خلى الفؤاد

لم أعرف العشق وطعم السهاد * حتى دعاني لما ماته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بمرارته * لم يدبر ما للعشق وما ذله * الا الذي أسقمه طوله
وضاع منه في الهوى عقله * وشربه من مر جرعانه * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بمرارته * كم عين صب في الدجى أسهره * وأحرم الجفن لذيذا الكرى
وكم أسأل دمعـه أنـهـرا * تجري على المد بلوعانه * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بمرارته * كم في الوري من مغرم مستهام * هـرآن من وحد بعد المنام
لبسه ثوب الضنا والسقام * من قد نفي عنه مناماته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بمرارته * كم قل صبري وبري أعظمي * وسال دمي منه كالهـدم
من أهدف قد زاد فيه سقمي * قد كان حلوا في مذاقاته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بمرارته * مسكين من في الناس مثلي عشق * وبات في جنح الليالي أرق
ان عام في بحر الهوى غرق * يشك من العشق وزفراته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بمرارته * من ذا الذي بالعشق لم يبدل * ومن نجا من كده الامـل
ومن بعش منه بعش خلى * وأين من غار براحاته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بمرارته * يارب دبر من به قد بلى * وأكفله أنعم أنت من كافل

وارزقه منك بالثبات الجلي * والطف به في كل آفاته

آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته

قل فرغ نور الدين من كلامه وخاص من شعره ونظامه قالت بنت الوزير في نفسها
وحق المسح والدين الصبح ان هذا المسلم شاب مليح ولكن لاشك انه عاشق مفارق
فما ترى معشوق هذا الشاب مليح مثله وهل عنده مثل ما عنده أم لا فان كان معشوقه
عليها مثله يحق له اسالة العبرات وشكوى الصبايات وان كان غير مليح فقد ضيع عمره
في الحسرات وحرم طعم الاذات وكانت مريم الزنارية زوجة الوز برحمة نور الدين قد
نقلت الى القصر الجديدا مس ذلك اليوم وعلمت منها بنت الوز برضى الصدر فزمت
على ان تذهب اليها وتحدثها بخبر هذا الغلام وما سمعت منه من النظام فاستتمت
الفكر في هذا الكلام حتى ارسلت خلفها السيدة مريم زوجة أبيها لاجل ان تؤانسها
بالحديث فذهبت اليها فرأت صدرها ضيقا ودموعها جارية على خديها وهي تبكي
البكاء الشديد الذي ماعليه من زبد وتك كسف العبرات وتشد هذه الايات
مخني عمري وعمر الوجداني * وصدرى ضاق من فرط اشتياقي
وقلبي ذاب من ألم الفراق * يؤمل عودا أيام التلاق
لينظم الوصال على انتساق *

أقلوا اليوم عن مطلوب قلب * نخبل الجسم من شوق وكرب

ولا ترموا أحشاءهم عتب * فإني السكون أشقى من محب

* فمر العشق - ملو في مذاق *

فقالت بنت الوزر السيدة مريم مالك أيتها الملكة ضيقة الصدر مشتتة الفكر فلما سمعت
السيدة مريم كلام بنت الوزر تذكرت ما فات من عظيم الاذات فأنشدت هذه الايات
ساصبر نوط ينأى على هم صاحي * وأرسل در الدمع نثر على نثر
عسى فخرج ياتي به الله انه * طوى كل بسر نحت اجنه العسر

فقالت لها بنت الوزر يا أيتها الملكة لا تضيق صدرا ووقعي في هذه الساعة الى شباك
القصر فان عندنا في الاصطبل شابا مليحاً رقيق القوام - ملو - الكلام كانه عاشق مفارق
فقالت لها السيدة مريم باي علامة عرفت أنه عاشق مفارق فقالت لها بنت الوزر رأيته
الملكة عرفت ذلك بانشاده القصائد والاشعار آفاء الليل وأطراف النهار فقالت السيدة
مريم في نفسها ان كان قول بنت الوزر بريئة من هذه صفات الكتيب المسكين على نور الدين

فماهل ترى هو ذلك الشاب الذي ذكرته بنت الوزير ثم ان السيدة مريم زاد بها العشق
والهيام والوجد والافراق فقامت من وقتها وساعتها ومشت مع بنت الوزير الى الشباك
ونظرت منه فرأته محبوبها وسيدها نور الدين ودقت النظر فيه فعرفته حق المعرفة
ولكنه سقيم من كثرة عشقه لها ومحبتها اياها ومن نار الوجد والم افراق والوله والاشتياق
قد زاد به الفحول وهو ينشد ويقول

القلب بمملوك وعيني جارية * ليس لها سحابة بحارية
بين بكائي وسهادي والجوى * والنوح والحزن على أحبابيه
واحرقني واحسرتني والوعتي * تكاملت أعدادها ثمانية
وقابلتها خمسة في خمسة * ألقوا واسمها ومقاله
ذكر وفكر وزفير وضنا * وفرط شوق واشتغال باليه
محبته وغربة وصبوة * ولهفة وقرحة ترابيه
قل اضطباري واحتمالي للهوى * لما نأى صبري دنت آجاليه
قد زاد في قلبي تباريح الجوى * باسائل عن نار قلبي ما فيه
مبال دمي موقد في محبتي * فنار قلبي لا تزال حاميه
أصحت في طوفان دمي غارقا * ومن لظى هذا الهوى في هاويه
فلما رأت السيدة مريم سيدها على نور الدين ومشت بايخ شعره وبديع فظمه تحققت
أنه هو وامن كتمت أمرها عن بنت الوزير وقالت لها وحق المسحج والدين الصريح
ما كنت أحسب أن عندك خبر ايضا في صدى ثم نهضت لوقتها وساعتها وقامت من
الشباك ورجعت الى مكانها ومضت بنت الوزير الى حالها ثم صبرت السيدة مريم برهة من
الزمان ورجعت الى الشباك وجلست فيه وصارت تنظر الى سيدها نور الدين وتتأمل
في لطفه ورقة معانيه فرأته كالبدرا اذا بدت في ليلة أربعة عشر اكنه دائم الحسرات جاري
العبرات وقيد تذكر ما فات فانشد هذه الايات

أملت وصل أحبي في مائلته * أبدا ومرا ليش قد واصلته
دهي مجاكى البهر في جريانه * وأذا رأيت عواذلي كفكفته
آه على داع دعا بفراقنا * لولت منه لسانه لقطعتنه
لاعتب الأيام في أفعالها * مزجت بصرف المرابرجته
قلمن أسير الى سواكم قاصدا * والقلب في ساحاتكم خلفته
من منصني من ظلم متحكما * بزاد ظلمنا كلما حكمته

ملكته بروحي ليعظه - ظ ملكه * فاضاعني واضاع ماملكته
 انفتت عمري في هواك وليتني * اعطى وصولا بالذي انفتت
 باليهما الرشا الم - لم به بيتي * يكفي من الهجران ما قد ذقت
 أنت الذي جمع الحسن وجهه * لكن عليه نصبري فرقت
 أحلته قلبي فخل به ابلا * اني لراض بالذي أحلته
 وجرت دموعي مثل بحر زاهر * لو كنت أعرف مسللك السلكه
 وخشيت خوفا أن أموت بحسرة * وبفوت مني كل ماملته

فلما سمعت مريم من نور الدين العاشق المفاارق انشاد هذه الاشعار حصل عندها من
 كلامه اقشعر رافا فاضت دموع العينين وأنشدت هذين البيتين

بليت من أهوى فله القبيله * ذهبت فلم أملك لسانا ولا طرفا
 وكنت معدا للعتاب دفاترا * فلما اجتمعنا ما لقيت ولا حرفا

فلما سمع نور الدين كلام السيدة مريم عرفها وبكى بكاء شديدا وقال والله ان هذه
 نعمة صديقي مريم الزنارية بلا شك ولا ريب ولا رجم غيب فدا ترى هل ظني صحيح
 وأنها هي أو غير دأتم ان نور الدين زادت به الحسرات فتأوه وأنشد هذه الايات
 لما رأني لاثني في الهوى * صادفت حبي في مكان رحيب
 ولم أفه بالعتب عند اللقاء * ورب عتب فيه بوه الكتيب
 فقال ما هذا السكوت الذي * صدك عن هذا الجواب المصيب
 فقلت يا من قد غدا جاهلا * بحال اهل العشق كالستريب
 علامة العاشق في عشقه * سكونه عند لقاء الجبيب

فلما فرغ من شعره أحضرت السيدة مريم دواء وقرطاسا وكتبت فيه بعد البسملة
 الشريفة (أما بعد) فسلام الله عليك ورحمته وبركاته وأخبرك أن الجارية مريم تسلم
 عليك وهي كثيرة الشوق اليك وهذه مراسلتك اليك فساعة وقوع هذه الورقة
 بين يديك انقض من وقتك وساعتك واهتم بما تريد منك غاية الاهتمام والحذر كل
 الحذر من الخفاقة ومن ان تمام فإذا مضى ثلث الليل الاول فان تلك الساعة من أسعد
 الاوقات فلا يكون لك فيها شغل الاشد الحصانين وتخرج بهما خارج المدينة وكل من
 قال أين أنت ذاهب فقل أنا ذاهب أسيرهما فإذا قلت ذلك لا يمنعك أحد فان اهل هذه
 المدينة وانفقون به فقل جميع الابواب وانتظري حتى أجي اليك ثم ان السيدة مريم
 لغت الورقة في منديل حررورتم الى نور الدين عن الشباك فاخذها وقرأها وفهم

ما قيمنا وعرف انما بخط السيدة مريم فقيلها او وضعها بين يديه وتذكر ما حصل له معها
من طيب الوصال فاسال دفع العنين وانشد هذين البيتين

أنا في كتاب منكم جنح ابلة • فتهيجني شوقا اليكم وأبراني
وذكرني أنسا مضى بوصالكم • فسبحان رب باله تفرق أبلاني

ثم ان نور الدين لما جن عليه الليل اشتغل باصلاح الحصانين وصبر حتى مضى من
الليل ثلثة الاول ثم قام من وقته وساعته الى الحصانين ووضع عليهم ما سر جين من
أحسن السروج وخرج من باب الاصطبل وقفل الباب وسار بهما الى باب المدينة
وبطسنة نظرت السيدة مريم هذا ما كان من أمر نور الدين (وأما) ما كان من أمر الملكة
مريم فانما ذهبت من وقتها وساعتها الى المجلس الذي هو معبد له في ذلك القصر
فوجدت الوزير بالاعور جالسا في ذلك المجلس متكئا على مائدة من ريش النعام وهو
مستغ أن عديده البهاو يخاطبها فلما رآته ناجت ربه في قلبها وقالت اللهم لا تبعه معني
أو باولا تخمكم على بالنجاسة بعد الطهارة ثم أقبلت عليه وأظهرت له المودة وجلست في
جانبه ولا طفته وقالت له يا سيدي ما هذا الاعراض عننا هل هو منك تبه وودلال علينا
ولكن صاحب المثل السائر يقول اذا بار السلام سلمت النعمود على اقيام فان كنت
يا سيدي الوزير بما تحبني عندي وتخاطبني أجيء أنا عندك وأخاطبك فقال له الوزير
الفضل والجميل لك يا ملكة الديار الافرنجية والبلاذال وميه وهل أنا الامن بعض
خدامك وأقل غلمانك وانما أنا مستغ أن أقدم على مخاطبتك الفخيمة أيتها الملكة
العظيمة ووجهي منك في الارض فقالت له دعنا من هذا الكلام وأتنا بنا أكل
والمشرب وهي انما أبار بق المدام فعند ذلك صاح الوزير على جواربه وخدمه وأمرهم
بأحضار المأكول والمشرب فقدموا له سفرة فيها مارج وطار وسج في البهار من سمان
وأفراخ الحمام ورضيع الضان وأوز سمين ودجاج محروم وغالب أنواع الالوان فذبت
السيدة مريم يدها الى السفرة وأكلت وصارت تلثم الوزير وتقبله في فمه ومازالا ياكلان
حتى اكتميا من الاكل ثم غسلا أيديهما وبعد ذلك رفعت المدام سفرة الطعام
وأحضرت وأسفرت المدام فصارت مريم تاكل وتشرب وتسقيبه وزادت في فعليل مزاجه
أكثر مما كان يكفيه حتى كاد أن يطير قلبه من الفرح واتسع صدره وانشرح فلما غاب
عقله عن الصواب وتمكن منه الشراب مدت يدها الى جيبها وأخرجت منه قرصا من
البسج البكر الثمر في الذي اذا شتم منه القليل أدنى رائحة نام جلة من الايام وكانت أعدته

لهذه الساعة ثم غافلت الوزيرة فركته في القدرح وملائته وأعطته إياه فطار عقله من
الفرح وما صدق أنها تناوله إياه فتناول القدرح وشربه فاستقر في حروفه حتى خر صريحا
على الأرض في الحال فقامت السيدة مريم على قدميها واعدت الى حرجين كبيرين
وملائتهما خاف حمله وغلائته من الجواهر والبواقيت وأصناف المعادن الثمينة ثم
حملت معها شيئا من الماء كل والشرب وابست آلة الحرب والكفاح من سائر أنواع
السلح وأخذت معها النور الدين ما يصير من الملابس الملوكة الفاخرة وأهبة السلاح
القاهرة ثم انها حلت الحرجين على اكتافها فرحمة بما أصابته من حصول الأرب
والسير محبة محبوبها الى بلاد العرب وكانت ذات قوة وشجاعة وتوجهت الى نور
الدين هذا ما كان من أمر مريم (وأما) ما كان من أمر نور الدين العاشق الحزين
فانه قد عد على باب المدينة ينتظرها ومقاود الحصانين في يديه فارسل الله عز وجل عليه
النوم فنام وسبحان من لا ينام وكانت ملوكة الجزائر في ذلك الزمان قد بذلوا المال رشوة
على سرقة هذين الحصانين أو أحدهما وكان في تلك الأيام عبد أسود تربي بالجزائر
يعرف بسرقة الخيل فصارت ملوك الافرنج يرشونه بمال كثير لاجل أن يسرق
الحصانين ووعدوه انه ان سرق الحصانين به طوره جائزة كاملة ويخذهوا عليه خلعاً ماضية
وقد كان لذلك العبد زمان طويل يدور في مدينة أفرنجية وهو مخنف فيها فلم يقدر على
أخذ الحصانين وهما عند الملك فلما وهبهم مالا وزيرا ليعور ونقله ما الى الاصطبل فرح
العبد فرحاً شديداً وطمع في أخذهما وقال وحق المسح الا ان اطمانت على سرقة ما
ثم ان العبد خرج في تلك الليلة فاصدا ذلك الاصطبل ليسرق الحصانين فبينما هما
اذ لاحت منه التفاتة فرأى شخصاً نائماً وهو نور الدين ومقاود الحصانين في يده فمرفهما
وتقدم اليه ونزع المقاود من رؤسهما وشي قليلاً وأراد أن يركب واحداً ويسوق الآخر
قدماه واذا بالسيدة مريم واقبلت وهي حاملة للحرجين على كتفيها فظننت أن العبد
نور الدين فتناوله أحد الحرجين فوضعه على الحصان ثم ناولته الثاني فوضعه على
الحصان الآخر وهو ساكت وهي تظن أنه نور الدين ثم انها خرجت من باب المدينة
والعبد ساكت فقال له يا سيدي نور الدين مالك ساكت فالتفت العبد اليها وهو
مغضب وقال لها أي شيء تفكرين يا جارية قسمت بربرة العبد فعرفت انها غيرة لنور
الدين فرفعت رأسها اليه ونظرة فوجدت له مناخيراً كالابريق فلما نظرت صار الضياء
في وجهها ظلاماً فقالت له من تكون يا شيخ بني حام وما اسمك بين الانام فقال لها

ما نبت اللثام أنا سمى مسعود سراق الخيل والناس نيام فأردت عليه نسي من
 الكلام بل جردت من وقتها السيف وضربته على عاتقه فطلع يلعب من علائقه فوق
 ضربه على الأرض يختبط في دمه ويجعل الله بروحه إلى النار وبئس القرار فعند
 ذلك أخذت السيدة مريم الحصانين وركبت واحدا منهما وقبضت على الآخر بيدها
 ورجعت على عقبها تفتش على نور الدين فلقبته راقدا في المكان الذي وعدته
 بالاجتماع فيه والمقادير في يده وهوناً ثم يخط في نومه ولم يعرف يديه من رجله فترأت
 عن ظهر الحصان والكرتة بيدها فانتبه من نومه مرعوباً وقال لها يا سيدتي الحمد لله على
 مجيئك سالمة فقالت له قم اركب هذا الحصان وأنت ساكت فقام وركب الحصان وركبت
 السيدة مريم الحصان الثاني وخرجا من المدينة وسارا قليلاً وبعد ذلك التفتت مريم
 إلى نور الدين وقالت له أما قلت لك لا تتم فانه لا أفصح من بنام فقال يا سيدتي أنا ما كنت
 إلا من برد فؤادي عبيدك وأي شيء جرى يا سيدتي فأخبرته بحكاية العبد من المبتدأ إلى
 المنتهى فقال لها نور الدين الحمد لله على السلامة ثم جدها في أسراع المسير وقد سلمات
 أمرهما إلى اللطيف الخبير وصارا يتحدنان حتى وصلا إلى العبد الذي قتلته السيدة
 مريم فـراه مرمياً في التراب كأنه غفريت فقالت مريم لنور الدين انزل جرده من ثيابه
 وخذ سلاحه فقال لها يا سيدتي والله أنا لا أقدر أن أنزل عن ظهر الحصان ولا أقف
 عنده ولا أتقرب منه ونجى نور الدين من خلقته وشكر السيدة مريم على فعلها وتعجب
 من شجاعتها وقوة قلبها ثم سارا ولم يزالا سائرين سيرا حثيثاً بقية الليل إلى أن أصبح
 الصباح وأضاء بنوره ولاح وانتشرت الشمس على الروابي والبساتين فوصلا إلى
 مرج أبيض فيه الغزلان تفرح وقد اخضرت منه الجوارب وتشتكل فيه الأشجار من
 كل جانب وأزهاره كبطون الحبيات والطيور على غصون أشجاره عاكفات ينردن
 بحلاوة الأصوات باختلاف اللغات وجدوا له تجرى مختلفة الصفات كما قال فيه
 الشاعر وأجاد ووفي بالمراد

وقانا الفحة الرضاء واد • وقاه مضاعف النبت العميم
 نزلنا دوحه فحننا علينا • حنوا الرضاء على الفطيم
 وأرشفنا على ظمأ زلالا • ألذمن المدامه للنديم
 يصد الشمس أنى واجهتنا • فيحجبها ويأذن للنسيم
 يروع حصاه حالية العذارى • فتلمس جانب العقد النظيم

(وكان قال الآخر)

واذا ترغم طيره وغديه • يشتاقه الواهمان في الاسهار
فكانه الفردوس في أفئانه • ظل وفاكهة وما جاري

فحينئذ ذلك نزلت السيدة مريم هي ونور الدين ليستريح في ذلك الوادي فلما نزل بها كلا
من أعماره وشربا من أنهاره واطلقا الحصانين بين يدا كلان من المرعى فصارا يا كلان
وبشر بان من ذلك الوادي وجاس نور الدين هو مريم يتحدنان ويتذاكران حكايتهما
وما جرى لهما وكل منهما يشكو ما أحبه ما لاقاه من ألم الفراق وما فاساه من البعد
والاشتياق فيبينهما كذلك واذ انقار قد نثار حتى سد الأفطار وسمعا صهيل الخيل
وقد قهقه السلاح وكان السبب في ذلك أن الملك لما زوج ابنته للوزير ودخل عليها في تلك
الليلة وأصبح الصباح وأراد الملك أن يصبح عليها كما جرت به العادة عند الملوك في
بناتهم فقام وأخذ أقشعة من الحرير وثر الذهب والفضة التي تخططفها الخدمة والمواشط ولم
ينزل الملك بمشي هو وبعض العلمان إلى أن وصل إلى القصر الجديد وطلعا فيه فوجد
الوزير ير مبعلى الفراش لم يعرف رأسه من رجله فالتفت الملك في القصر يمينًا وشمالًا
فلم ير ابنته فيه فتذكر حاله واشتغل باله وأمر بإحضار الماء الساخن والغسل البكر
والسكندرقا وأحضر والده ذلك خلطها ببعضها وسعط الوزير بها ثم هز منفرج البنير
من جوفه كقطع الجبن ثم إن الملك سعط الوزير بذلك ثاني مرة فانتبه فساله عن حاله
وعن حال ابنته مريم فقال له أيها الملك الأعظم لا علمي بها غير أنها سقتني قد حامن الخمر
بيدها في ذلك الوقت ما عرفت وحي الأفي هذه الساعة ولا أعلم ما كان من أمرها فلما
سمع الملك كلام الوزير صار الضمما في وجهه ظلاما وجر السيف من قرابه وضرب به
الوزير على رأسه منفرج بلع من أضراسه ثم إن الملك أرسل من وقته وساعته إلى العلمان
والسياس فلما حضر واطلب منهم الحصانين فقالوا له أيها الملك إن الحصانين فقد في
هذه الليلة وكبيرنا فقد معهما أيضا فانه لما أضبعنا وجدنا الأبواب كلها مغلقة فقال الملك
وحق ديني وبما يعتقد يميني ما أخذ الحصانين إلا بقي هي والاسير الذي كان يخدم
الكنيسة لمكان قد أخذها في المرة الأولى وعرفته حتى المرفة ولم يخافه من يدي الأهذا
الكلب الوزير الأعور وقد جوزى بفعله فلا رحم الله عظامه ثم إن الملك قام من وقته
وساعته ودعا بأولاده الثلاثة وكافوا بطا الأشبعما تاكل واحد منهم يقوم بالف فارس في
خدمة الميبدان ومقام الضرب والطعان فصاح الملك عليهم وأمرهم بالكوب فركبوا

والملك بجملتهم مع خواص بطارقتهم وأرباب دولته وأكابرهم وساروا يتبعون آثارهم فما
فلحقوهما في ذلك الوادي فلما رأتهن مريم نهضت وركبت جوادها وتقلدت بسيفها
وحملت آلة سلاجهما وقالت لنور الدين ما حالك وكيف قلبك في القتال والحرب والقتال
فقال لهما ان ثباتي في القتال مثل ثبات الوتد في الفخال وأنشد يقول

يا مريم اطرحي ألبم عتاي * لاتقصدي قتلى وطول عذابي
من أين لي اني أكون محارباً * اني لافـزع من نبعي غرائي
واذا نظرت الفارافزع خيفة * وأبول من خوفي على أثوابي
أنا لأحب الطمن الاخـلوة * والكس يعرف سطوة الازباب
هـذا هو الرأى السديد وما يرى * من دون هذا الرأى غير صواب

فلما سمعت مريم من نور الدين هـذا الكلام والشعر والنظام أظهرت له الضحك
والابتسام وقالت يا سیدی نورالدين الهمام الزم مكانك وأنا كفيل شرهم ولو كانوا
عدداً لم تلثم انهما قامت من وقتهما وساعتها وتهايات للقتال وأطلقت من يدها طرف
العنان وأدارت الرمح من جهة السنان فخرج ذلك الحصان من تحتها كأنه الريح
الهبوب أو الماء اذا اندفق من ضيق الانبوب وقد كانت مريم أشجع أهل زمانها
وأفرض أهل عصرها وأنها لان أباهما علمها الركب عظمى ظهور الخيل وخوض
بمحار الحرب في ظلام الليل وقالت انور الدين اركب جوادك وكن خلف ظهري واذا
انهمزنا فاجرس على نفسك من الوقوع فان جوادك ما يلحقه لاحق فلما نظر الملك الى
ابنته مريم عرفها غاية المعرفة وانفتحت الى ولده الاكبر وقال له يا برطوط يا ملقب برأس
القلوط ان هذه أختك مريم لاشك فيهما ولاريب قد حملت وطلبت حربنا وقتنا فابرز
اليها واجمل اليها واسكن وحق المسبح والدين الصريح انك ان ظفرت بها لا تقتلها حتى
تعرض عليها دين النصارى فان رجعت الى دينها القديم فارجع بها السيرة وان لم ترجع
اليه فاقتلها أقيم قتلة ومثل بها أشنع مثله وكذلك هذا الملعون الذي معه ما مثل به أقيع
مثله فقال له برطوط السمع والطاعة ثم برز الى أخته مريم من وقته وساعته وحمل
عليها فلاقته وحملت عليه ودنت منه وتقربت اليه فقال لها برطوط يا مريم أما يكفي
ما جرى منك حيث تركت دين الاباء والاجداد واتبعت دين السواحسين في البلاد
يعني دين الاسـلام ثم قال وحق المسبح والدين الصريح ان لم ترجعي الى دين آبائك
وأجدادك من الملوك ونسلكي فيه أحسن السلوك والأفتلك أشرف قتلة وأمثل بك

أقبح مثله فضحكت مريم من كلام أخيها برطوط وقالت هيأت أن يعود ما فات أو
 يعيش من مات بل أجزعك أشد الحسرات أنا والله لست براجمة عن دين محمد بن عبد
 الله الذي عم نفعه وهدهاه فانه هو الدين الحق فلا أترك الهدي ولو سقيت كؤوس الردي
 فلما سمع الملعون برطوط من أخيه هذا الكلام صار الضياء في وجهه كالظلام وعظم
 ذلك عليه وكبر لديه فالتهب بينهم ما القتل وغاص الاثنان في الاودية والارض
 الطوال وصبرا على الشدة والاهوال وشغعت لهما الابصار فاحذوها الانهار
 ثم نجحوا لمليا واعتز كاطويلا وصار برطوط كلما بفتح لاخته مريم ابان الحرب
 تبطله عليه وتسد به محسن صناعتها وقوة براعتها وشدة معرفته او فروسيته ولم يكن
 لنور الدين شغل الا التضرع والابتهال لانه لا طاقة له في التزلزلا مقاومة الابطال
 في الحرب والقتال ولم تزل السدة مريم وأخوها برطوط على تلك الحالة حتى اذ قد
 على رؤسهم الانبار وغاب الفارسان عن الابصار ولم تزل مريم تحاوله وتجاوله
 وتسد عليه طريقه حتى كل من ألم الحرب وبطلت همته واضمحل عزمه وضعت قوته
 فضربته بالسيف على عاتقه فخرج يلع من علائقه وعجل الله بروحه الى النار
 وبئس الفرار ثم ان مريم جالت في حومة الميدان وموقف الحرب والطعان
 وطلبت البراز وسالت الانحياز وقالت هل من مقاتل هل من مناجز لا يبرز لي اليوم
 كسلا ولا عاجز لا يبرز لي الابطال أعداء الدين لاسقيهم كأس العذاب المهين
 يا عبدة الاوثان وذوي الكفر والطغيان هذايوم تبيض فيه وجوه اهل الايمان
 وتسود وجوه اهل الكفر بالرحمن فلما رأى الملك ولده الكبير قد قتل لطم على وجهه
 وشق أثوابه وقال آه من فرقة الانسان أحبابه وبعد ذلك صاح على ولده الاوسط
 وقال يا برطوس يا مغرب بخرة السوس ابرز يا ولدي بسرعة الى قتال اخيتك مريم
 وخدمتها انا اخيتك برطوط واثنى بها أسيرة ذليلة حقيرة فقال لها يا بنت السمع والطاعة
 ثم انه برز لاخته مريم وسجل عليها فلا تته وجلت عليه وتقدمت بكلمته اليه وتقاتلت
 هي واباهة الاشد ديدا أشد من القتال الاول فرأى أخوها الثاني نفسه عاجزا عن
 قتالها من عظم ما نظر من قوة شجاعته اوشدة تزلها فاراد الفرار والهرب فلم يمكنه
 ذلك من عظم بأسها لانه كلما ركن الى الفرار تقربت منه ولا صقته وضايقته ثم ضربته
 بالسيف على رقبتة فخرج يلع من لبته والحقته باخيه وبعد ذلك جالت في حومة
 الميدان وموقف الحرب والطعان وقالت ابن الفرسان والشهيدان ابن الوزير

الامور الاعرج صاحب الدين الاعوج فعند ذلك صاح ابوها بقلب جريح وطرف
 من الدمع قسرح وقال انها قتلت ولدى الاوسط وحق المسيح ثم انه صاح على ولده
 الصغير وقال له يا فتى ان هياما قب بسلح الصبيان اخرج يا ولدى الى قتال اخذك وخذ
 منها ثارا خويك وصادمها امالك او عليك وان ظفرت بها فاقتلها اقم قتلها ومثل
 بها اقم مثله فعند ذلك برز لها اخوها الصغير وحل عليه افلاقتهم منتهوا براعتها وحلت
 عليه بحسن صناعتها وقوة شجاعتها ومرفقها بانواع ملاعب الحرب وفروسياتها
 وقالت له يا عدو الله وعدو المسلمين لا تحقك يا خويك الطاغين الباغين الى النار
 وبئس مذوى الكافرين ثم انها جذبت سيفها من غمده وضربت به فقطعت عنقه
 وذراعيه وقد اخطته يا خوي به وحل الله بروحه الى النار وبئس القرار فلما رأى البطارقة
 والفرسان الذين كانوا ركبين مع ابائها اولاد الملك الثلاثة قد قتلوا وكانوا اشجع اهل
 زمانهم وقع قلوبهم الرعب من السيدة مريم وادهم شتم الهيمه ونكسوا رؤسهم الى
 الارض واقنوا بالالهلاك والدمار والذل والوار واحرق قلوبهم من الغضب بلهب
 النار فولوا الاديبار وركنوا الى القرار فلما نظر الملك الى اولاده وقد قتلوا الى عساكره
 وقد انهزموا اخذته الحيرة والانهار واحترق قلبه بلهب النار وقال في نفسه ان السيدة
 مريم قد استقلت بنا وان خاطرت بنفسى وبرزت اليها وحدي رجا غلبت على
 وقهرتني فتقتلني اشنع قتله وتمثل بي اقم مثله كما قتلت اخوتها لانهم لم يبق لها فينا
 رجا ولا ناس في رجوعها طمع والى السيدان احفظ حرمتي وارجع الى مدينتي
 واقعد على تختي ملكتي لا يذهب من يدي وابقي فاقد له كما فقدت اولادى الذين
 كانوا عدي وعضدى ثم ان الملك ارخى عنان فرسه ورجع الى مدينته وعجل
 ملكته فلما استقر في قصره انطلقت في قلبه النار من اجل قتل اولاده الثلاثة وانهزم
 عسكره وهلك حرمة فلما استقر نصف ساعة حتى طلب ارباب دولته وكبراء ملكته
 وشكاهم فعمل ابنته مريم معهم قتلها اخوتها وهم اولاده الثلاثة وما لاقاه من القهر
 والحزن واستشارهم فاشاروا عليه كاهم ان يكتب كتابا الى خليفة الله في ارضه امير
 المؤمنين هرون الرشيد ويعلمهم هذه القضية فيكتب الى الرشيد مكتوبا مضمونا بعد
 السلام على امير المؤمنين ان لنا بنتا اسمها مريم الزارية قد افسدها علينا اسير من اسراء
 المسلمين اسمها نور الدين على ابن التاجر تاج الدين المصري واخذها اليه لا يخرج بها الى
 ناحية بلاده وانما آل فضل مولانا امير المؤمنين ان يكتب الى سائر بلاد المسلمين

بقصده لوارسها البينامع رسول أمين من خدم حضرة أمير المؤمنين ومن جملة
 مضمون ذلك الكتاب أننا نجعل لكم في نظير مساعدتكم لنا على هذا الأمر نصف
 مدينة رومة الكبرى ابتداءً فيها مساجد للمسلمين ويجعل اليكم خراجها وبعد أن كتب
 الكتاب برأى أهل مملكته وكبراءه واتباعه طواها ودعا بوزيره الذي جعله وزيراً مكان
 الوزير الأعور وختمه له هو وأكبر دواته بعد أن وضعوا خطوط أيديهم فيه ثم قال
 الوزير إن أنبت بها فلنك عندى أقطاع أمير بن وألحق عليك خلفة بطرازين ثم ناوله
 الكتاب وأمره أن يسافر إلى مدينة بغداد دار السلام ويوصل الكتاب إلى أمير المؤمنين
 من يده إلى يده فسافر الوزير بالكتاب وسار به قطع الأودية والغفار حتى وصل إلى
 مدينة بغداد فلما دخلها مكث فيها ثلاثة أيام حتى استقر واستراح ثم سأل عن قصر
 أمير المؤمنين هرون الرشيد فدله عليه فلما وصل إليه طلب أذن من أمير المؤمنين في
 الدخول عليه فاذن له في ذلك فدخل عليه وقبل الأرض بين يديه وناوله الكتاب الذي
 من ملك أفرنجية ومحبة من الهدايا والتحف النفيسة العجيبة ما يليق بأمير المؤمنين
 فلما فتح الخليفة المكتوب قرأه وفهم مضمونه وأمر وزرائه من وقته أن يكتبوا المكاتب
 إلى سائر بلاد المسلمين ففعلوا ذلك وبينوا في المكاتب صفة مريم وصفة نور الدين
 وأتم ما هاربان فبكل من وجدهما فليقبض عليهم وما ويرسلهما إلى أمير المؤمنين
 وحذرهم من أن يعطوا في ذلك أمها لا أوها لا أو غفلة ثم ختمت الكتب وأرسلت
 مع السعاة إلى آل مال فبادروا في امتثال الأمر وساروا بفتشون في سائر البلاد على
 من يكون بهذه الصفة هذا ما كان من أمر هؤلاء الملوك واتباعهم وأما ما كان من
 أمر نور الدين المصري ومريم الزنارية بنت ملك أفرنجية فانهم أركباه دنانير زمام الملك
 وعساكره وساروا إلى بلاد الشام وقد ستر عليهم الستار فوصلوا إلى مدينة دمشق وكانت
 الطلائع التي أرسلها الخليفة قد سبقتهم إلى دمشق بيوم فعلم أمير دمشق أنه مأمور
 بالقبض عليهم فامتنع ووجهما إلى حضرة ما بين يدي الخليفة فلما كان يوم دخولهما إلى
 دمشق أقبل عليهم الجواسيس فسألوهما عن اسميهما فاجاباهم بالعجيج وقصاعليهم
 قصتهما وجميع ما جرى عليهم ما فرقوهما وأخذوهما وساروا بهما إلى أمير دمشق
 فأرسلهما إلى الخليفة بمدينة بغداد دار السلام فلما وصلوا إليها استأذنوا في الدخول
 على أمير المؤمنين هرون الرشيد فاذن لهم فلما دخلوا عليه قبلوا الأرض بين يديه وقالوا
 له يا أمير المؤمنين إن هذه مريم الزنارية بنت ملك أفرنجية وهذه نور الدين المصري الأسير

الذي أفسد دها على أيهما وسرقها من بلادها وهرب بها إلى دمشق وجدناها وقت
دخولها - مادمشق وسأناهم ما عن أسماهم ما فاجابونا بالصحيح فوجدنا ذلك أتيناهم - ما
وأحضرتناهم بين يديك فنظر الخليفة إلى مريم فرأها رشيقة القوام فصيححة الكلام
فليحه أهل زمانها فريضة عصرها وأنها أحلوة اللسان ثابتة الجنان فلما وصات إليه
قبلت الأرض بين يديه ودعت له بدوام العز والنعم وزوال البؤس والنقم فاجيب
الخليفة حسن قوامها وعذوبة لفاظها وسرعة جوابها فقال لها هل أنت مريم الزنارية
فبت ملك أفرنجية قالت نعم يا أمير المؤمنين وإمام الموحدين وحامي حومة الدين وابن
هم سيد المرسلين فمضى ذلك التفت الخليفة فرأى عليان نور الدين المهرى شابا لهجيا
حسن الشكل كأنه البدر المنير في ليلة تمامه فتمال له الخليفة هل أنت علي نور الدين
الأسير ابن الناجح الدين المهرى قال نعم يا أمير المؤمنين وعمدة القاصدين فقال
الخليفة كيف أخذت هذه الصبيبة من مملكة أبيها وهربت بها فصارت نور الدين يحدث
الخليفة بجميع ما جرى له من أول الأمر إلى آخره فلما فرغ من حديثه تعجب الخليفة
من ذلك غاية العجب وأخذ من العجب فرط الطرب وقال ما أكثر ما تنقاسيه الرجال
ثم إنه التفت إلى السيدة مريم وقال لها يا مريم اعلمي أن والدك ملك أفرنجية قد كانت ياف
شأنك فما تقولين قالت يا خليفة الله في أرضه باقائنا بسنة يديه وفرضه خلد الله عليك
النعم وأجارك من البؤس والنقم اني قد دخلت في دين الاسلام لانه هو الدين القويم
والصحيح ونزكت ملة الكفرة الذين يكذبون على المسيح وقد صرنا مؤمنة بالله الكريم
ومصدقين بما جاء به رسوله الرحيم عبد الله سبحانه وتعالى وأوحده واسجد خاضعة أمامه
وأعجده وأنا قائلين بين يدي الخليفة أنهم دان لاله الا الله وأشهدان محمد رسوله
أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فهل في وسعك
يا أمير المؤمنين أن تقبل كتاب ملك المحدثين وترسلني إلى بلاد الكافرين الذين
يشركون بالملك العلام ويعظمون الصليب ويعبدون الاصنام ويهتدون ألوية عبسى
وهو محم - لوق بين الانام فان فعلت في ذلك يا خليفة الله أتعلق بأذيالك يوم العرض على
الله وأشكوك إلى ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من
أتى الله بقلب سليم فقال أمير المؤمنين يا مريم معاذ الله ان أفعل ذلك أبدا كيف ارد امرأة
مسلمة موحدة بالله ومصدق برسوله إلى ما نهى الله ورسوله عنه فقالت مريم اشهدان
لا اله الا الله واشهدان محمد رسول الله فقال لها الخليفة يا مريم بارك الله فيك وزادك

هداية الى الاسلام وحيث كنت مسلمة موحدة بالله فقد صار لك علم ناحق واجب وهو
ان لا افرط فيك أبدا ولو بذل لي من أجلك كل الارض جـ واهرو ذهابا طيبي نفسا
وقري عينوا وانشروخي صدر او لا يكن خاطرك الاطمئنا هل رضيت ان يكون هذا الشاب
على المصري لك بعلاوة تكون في أنت له أهلا فقالت يا أمير المؤمنين كيف لا ارضى ان يكون
لي بعلاوة قد اشتراني بعماله واحسن الى غاية الاحسان ومن تمام احسانه انه خاطبر بروجه
من اجلي مرات عديدة فزوجه به الخليفة هارون الرشيد واهر هارمن عنده بعد ان
احضر القاضي والشه ودوا كابد ولته وعقـ عليهم النور الدين وكان يوم ما مشم ودائم بعد
ذلك النفث أمير المؤمنين الى وزير ملك افرنجية وكان حاضرا في تلك الساعة وقال له هل
سمعت كلامها كيف ارسلها الى أبيهم الكافر الطاغى وهي مسلمة ورعساءها واغفل
عليها خصوصا وقد فتمت اولاده فاتحمل انا ذنبي يوم القيامة وقد قال الله تعالى وان
يجعل الله للمكافرين على المؤمنين سبيلا فارجع الى ملكك وقل له ارجع عن هذا
الامر ولا تطمع فيه وكان ذلك الوزير ارحم فقال للخليفة يا أمير المؤمنين وحق المسح
والدين الصحيح لا يمكنني الرجوع بدون مريم ولو كانت مسلمة لاني لور جمعت الى أبيها
بدونها قلني فقال الخليفة خذوا هذا الملعون واقتلوه وانشد هذا البيت
هـ ذاب جزاء من عصى * من فوقه وعصائه

ثم أمر بضرب عنق ذلك الوز برقالت السيدة مريم يا أمير المؤمنين لا تنفس سيفا بدم
هذا الملعون ثم جردت سيفها وضربت به فاطاحت رأسه عن جثته فذهب الى دار
البوار وبنس القرار تهب الخليفة من صلابه ساعدها وقوة قلبها ثم خلع على نور الدين
خلعة سنية وأفرداهما مكانا في قصره ورتب لهما المراتب بما يحتاجانه وأمر ان ينقل
اليهما جميع ما يطلبانه من الملابس والمفارش والاواني النفيسة وأقاما في بغداد مدة
من الزمان وهـ ما في غاية الاذلة والسرور وبعد ذلك اشتاق نور الدين الى أمه وأبيه
فعرض الامر على الخليفة وطلب منه اذنا في التوجه الى بلاده لزيارة والديه وأقاربه
ودعائهم واحضر ما بين يديه فاجاز به بالتوجه وزوده من الهدايا والنفخ المشتمة
وأوصاهما به فذهب ما ثم أمر بالمراتب الى امراء مصر المحروسة وعلمائهم وكبارهم
بالوصية على نور الدين هو وأهله وعباله وأكرمهم غاية الاكرام فلما وصلت الاخبار
الى مصر المحروسة فرح التجار وناس الدين بعود ولده نور الدين وكذلك أمه فرحت بذلك
غاية الفرح وخرج لقائه الكبراء من الامراء وأرباب الدولة والرؤساء على حسب

وصية الخليفة فلاقوا نور الدين وكان يوما مشهودا للعالمين اجتمع فيه المحب والمحبوب
واتصل الطالب بالمطلوب وصارت تعمل ايام الضيافات في كل يوم على كل واحد من
الامراء والاجباب الظرفاء وفرحوا بهم الفرح الزائد وأكرمهم الاكرام المتصاعد
ولما اجتمع نور الدين بوالديه فرح به غاية الفرح وزال عنهم ما اوجعهم والترح وكذلك فرحا
بالسيدة مريم وأكرمها غاية الاكرام ووصلت اليهم الهدايا والتحف من سائر الامراء
والبحار الفخام وصاروا كل يوم في انشراح حديد وصور اعظم من سرور العيد واناموا
في فرح ولذات ونعم جارية مطربات وكل وشرب وسرور مدة من الزمان الى ان
اتاهم هازم الذات ومفرق الجماعات فسبها نالحى الذى لا يموت وبهده مقابليد
الملك والمملوكوت

بمحمدا لله قد تم طبع هذه القصة البهيمية المبهمة المشتملة على

ما جرى له على نور الدين المصرى مع جاريته مريم

الزنارية وذلك بالمطبعة العامرة الشرفية

الكائن محل ادارتها بشارع الخرنفش

بمصر المحمية سنة ١٣١٤ هجرية

على صاحبها افضل

الاصلاة وأزكى

التحية

PJ
7726
•Q5

02193329

PJ 7726
•Q5

JUL 24 1969

Digitized by Google

5

PJ-1726-93